

# سُورَةُ الرَّحْمٰنِ



## عرض ودراسة

نزلت هذه السورة الكريمة - في قول الجمهور - بمكة قبل الهجرة ، وعدد آياتها ثمان وسبعون ، وفي حديث نبوى عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمن » . وهو علم أو اسم اختصت به وحدها ، لأنها أنزلت بياناً مفصلاً للرحمة الإلهية بالإنسان وما أسبغه عليه ربه من النعم الدنيوية والأخروية والمادية والروحية . وقد بدأها جلاً شأنه بالنعمة الروحية الكبرى التى أضفاها على الإنسان بإنزاله القرآن فى أرفع صورة للكتب السماوية ، وأضاف إليها نعمة خلقه وما ركب فى ملكاته من العلم والتعلم . ثم بيّن أنواع النعم الدنيوية المتصلة بالكون والمرتبطة بالحياة الإنسانية وما ينبغى أن يكفل لها من العدالة والرزق وأسباب العيش والانتفاع بكل ما فى البر والبحر . ثم ذكر فناء العالم وما يعقبه من البعث والحساب . وفصل القول فى عقاب الكافرين وما ينتظرهم من عذاب النار . وكأنه يريد أن يقضى فيهم على نوازع الكفر وآثامه ويردهم إلى سواء السبيل . رحمة بهم وعظماً عليهم ، ومن أجل ذلك كان تصوير السورة لعذاب الجحيم داخلاً فى آلاء الله ونعمه . وصورت فى تفصيل أكثر سعة ما ينتظر المؤمنين المتقين من نعيم فى فرايس الجنان . وفى بعض الروايات أنها لما نزلت وحفظها بعض الصحابة ندب عبد الله بن مسعود نفسه لتلاوتها جهراً عند مقام إبراهيم بالكعبة ، حتى يبلغها قريشاً ، لعل منها من يُنيب إلى الله ورسوله حين تفرغ سمعه ، ومضى يتلوها رافعاً بها صوته ، فتجمع عليه بعض أعداء الدين الحنيف وضربوه حتى

تركوا آثاراً بوجهه . وفي الترمذى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن . . فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فَلَكَ الْحَمْدُ » .

وقد تكررت آية ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) بإزاء النعم في السورة حتى بلغت إحدى وثلاثين مرة ، وهو تكرارٌ كان حرياً بأن يلفت الصحابة ، رضوان الله عليهم . كما لاحظ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإما أن يرددوا عبارة كهة الجِن ، وإما أن يرددوا الآية نفسها مع كل نعمة قائلين ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) . وكان في هذه السورة المكية الكريمة طواعية لأن تردد جماعة تلك الآية مع من يتلوها ، حتى تخرق سمع من في آذانهم وقر ، وعلى قلوبهم أكنة ، من مشركى قريش وغيرهم . ويلقانا هذا التكرار في سور مكية أخرى ، من ذلك ما نقرؤه في سورة الشعراء بعقب بعض سنن الخلق وقصص الأنبياء : موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب من ترداد قوله تعالى : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ) وكذلك ترداد آية : ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ) في قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب بنفس السورة . ومن ذلك ما نقرؤه في سورة القمر من ترداد آية : ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ) بعد بيان ما نزل من العذاب بقوم نوح وبعاد وبشمود . أما قوم لوط فترددت مع الانتقام من عصيانهم آية : ( فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ) . وترددت في السورة أيضا آية : ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ) . ومن ذلك ما نقرؤه

في سورة المرسلات من ترداد آية : ( وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ) عشر مرات يعقب تفصيل القول عن المعاد وجزاء الكافرين وثواب المتقين . أو قل كأن هذه الآيات المرددة في سورها مواضع لترجيع ما قبلها . ومعروف أن القرآن الكريم دعا في قوة إلى ترتيله في مثل قوله عز ذكره : ( وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ) وترتيله قراءته جهراً في تودة بحيث تستبين الحروف وتتضح الحركات ، حتى يتمكن القارئ ومن يسمعه من التأمل في معاني الآيات . وما زال الأسلاف يدرسون هذا الترتيل وما يتصل به من مخارج الحروف وصفاتها كالجهر والهمس والشدة واللين حتى وضعوا في ذلك علم التجويد . وفي الحديث : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » . واشتهر أبو موسى الأشعري بجمال صوته في قراءة الذكر الحكيم حتى قال فيه الرسول : « لقد أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مِزْمِيرِ آلِ دَاوُدَ » . وفي سنن ابن ماجه عن الأوزاعي مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللَّهُ أَشَدُّ أَدْنَى ( اسْتِمَاعاً ) إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ » . ولمثل هذا الحديث وأحاديث مشابهة أباح جماعة من الفقهاء قراءة القرآن بالألحان ما لم يخرج القارئ ، بتمطيط الحروف ولف بعضها في بعض وبإشباع الحركات ومدّها ، عن الحد المقبول عند مهرة القراء . وإنما استطرنا إلى بيان ذلك لندلّ على ما دفع إليه القرآن والحديث من ترتيل كتاب الله وتزيينه بالصوت الحسن وترداد بعض آياته ، بل إنها لتتردّد فعلا على نحو ما ترددت آية ( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة . وكأنما يراد الانتساع بها في الترداد والإرنان والارتفاع بالصوت والترنم به ، استشعاراً لرحمة الله وجلاله ، وترغيباً للإنسان كي يتمثل في ضميره سورة الرحمن

نِعَم رَبِّهِ الدنيوية والأخروية ، وحتى يستنقذ نفسه من العذاب الأليم وينال ما يجدر به من الثواب والنعيم . وقد روى الرواة أن قيس بن عاصم أحد سادة بني تميم وبلغائهم المفوهين حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من قومه قال له : « أتُلُّ عليَّ مما أنزلَ عليك ( من القرآن ) فقرأ عليه سورة ( الرَّحْمَنِ ) فقال له : أَعِدُّهَا ، فأعادها الرسول عليه ثلاثاً ، فقال وقد بلغ منه الإعجاب والاستحسان الغاية : والله إن له لطلّوة ، وإن عليه لحلاوة ، وإن أسفله لمغدق ( كثير المياه ) وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . »

### ( الرَّحْمَنُ ) :

اختلف السلف في لفظة الرحمن هل هي مشتقة أو غير مشتقة ، فقيل إنه لا اشتقاق لها بل هي من الأسماء المختصة به سبحانه ، واستدل أصحاب هذا القول بأنها لو كانت مشتقة من الرحمة لانصلت بذكر المحروم فجاز أن يقال الله رحمن بعباده ، كما يقال رحيم بعباده . وذهب الجمهور إلى أنها صيغة للمبالغة مشتقة من الرحمة ، ومعناها ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها ولا شبيه . وهي لا تُثنى ولا تُجمع كما يثنى الرحيم ويجمع . ومما يدل على أنها مشتقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن خلقت الرحيم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . » واشتقاق اللفظة لا يمنع أن تتخذ علماً على الله عز ذكره ، لا يشركه فيه غيره ، علماً على ذاته ، مثلها مثل لفظة الجلالة ( الله ) . وقد يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : ( قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن

أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ) أى أَيًّا من الاسمين العظيمين . وقد يدل عليه أيضاً قوله عزَّ شأنه فى سورة الفرقان : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ) وكأنهم لم يكونوا يعرفون هذا الاسم للذات العلية قبل سماعهم له فى القرآن الكريم . وسواء أكان لفظ الرحمن اسماً موضوعاً لربِّ الكائنات أم وصفاً له مشتقاً للمبالغة من الرحمة فإنه مختص به لا يجوز أن يسمَّى أو يوصف به غيره . ولم يعادل القرآن باسم (الله) اسماً أو صفةً سواه على نحو ما تصوّر ذلك الآية الأولى آنفة الذكر . وهو يقابل فى القرآن الصفات الدالة على قدرة الله وشدة انتقامه الذى يصبه على العصاة قساة القلوب من مثل القوى ، القهار ، الجبار ، شديد العذاب ، شديد العقاب . وتقترب هذه الصفات فى كل جانب من جوانب القرآن بصفات الرحمة والعفو والمغفرة للتائبين النادمين . ولا نبالغ إذا قلنا إن صفة الرحمة وما يتصل بها من الألفاظ الدالة عليها تعدّ أبرز صفات الله فى الذكر الحكيم . ومعروف أن كل سورة من سور القرآن تفتتح بالبسملة أو بسم الله الرحمن الرحيم ، وقد وُضعت الرحمة والمغفرة دائماً بجوار العذاب والعقاب . وينبغى أن نعرف أن العقاب والعذاب لا يأتیان لذاتهما وإنما لتخويف العاصي حتى ينجو بنفسه ، ويستأصل منها جذور الشر والعصيان .

وقد ترددت صفات الرحمة ومشتقاتها فى الذكر الحكيم مئات المرات فى حين لم يُذكر أن الله عزيز ذو انتقام إلا فى أربع آيات : فى سورة آل عمران : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ) ، وفى سورة المائدة : ( وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ) ، وفى سورة إبراهيم : ( إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ) ، وفى سورة الزمر : ( أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ

ذِي انتِقَامٍ) . وبنوهُ القرآن مراراً برحمة الله وأنها تعمُ الناس بل تعمُ الأشياء جميعاً من مثل آية سورة الأنعام : ( كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ) ، وآية سورة الأعراف : ( وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ) . ودعا القرآن دعوةً قوية إلى أن لا ييأس أحد من رحمة الله مهما تكن معصيته ومهما تكن جنائته وذنوبه ، على نحو ما نقرأ في سورة الزمر : ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ) .

وفي كل ذلك ما يبطل دعوى خصوم الإسلام من أن صفات الله في القرآن تغلب عليها الشدة والقسوة ومجبة الانتقام فالصحيح أنها تغلب عليها الرحمة والرأفة والمودة والمحبة . وقد أسند الله حبه لعباده المؤمنين في أكثر من عشرين آية مثل آية سورة آل عمران : ( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ) ، وآية سورة المائدة : ( فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ) . وبذلك كان الإسلام دين رحمة ومحبة ورأفة بالعباد لا دين جبروت وقسوة وانتقام شديد كما يصفه أعداؤه ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا بهتاناً وزوراً كبيراً . وفي الصحيح عن أبي هريرة يرفعه : « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب عنده موضوع على العرش : رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » . وتدل كلمة ( الرحمن ) بصياغتها على زنة فعلان أنها محيطة بالخلق شاملة لهم ، إذ تأتي صيغة فعلان دائماً للدلالة على السعة والشمول مثل غضبان للممتلئ غضباً ونذمان للممتلئ ندماً ، وقال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة لا يختص به الله . والرحمة ، من الإنسان ، عطفٌ وحَنُوٌّ ؛ ومن الله ، إنعامٌ وإفضالٌ وإحسان . وكأنه جلُّ شأنه أودع في طباع الناس الرقة

وتفرّد هو بالإحسان والإنعام . وقال الغزالي (الرحمن) العطف على العباد بالإيجاد أولاً ، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً ، والإسعاف في الآخرة ثالثاً ، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم (يوم القيامة) رابعاً . وقد وُضِعَ الاسمُ الكريمُ عَلَماً على هذه السورة ومُفْتَتِحاً لها لاشتمالها على نعم الله الدنيوية والأخروية ولتعدادها إليها واتصال ذلك مباشرة بصفات (الرحمن) وما يقترن بها من الإحسان واللطف والرفقة والبر والإنعام ، وكأنّها الأسباب الواصلة بين الله ذى الجلال وبين عباده ، من أجلها خلق الإنسان ومكّن له في الأرض أسباب الرزق ، وسخّر له الكون ، وأرسل إليه الرُّسُلَ ، وأنزل عليهم الكتب . ومن أجلها وضع له ما يهديه إلى العمل الصالح وإلى سعادته في دنياه وآخرته . والسورة تبسط ذلك بسطاً واسعاً ، بما تصوّر من نعم الله وآلائه ووجوه إحسانه ، وكان كلّ نعمة إنمّا هي رحمة مُهدّاة إلى الناس جميعاً .

### (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) :

هذه أول نعمة استهلّت بها السورة النعمَ الإلهية على الإنسان ، وفي تقديمها على سواها من النعم ما يدل على أنها أعظمها شأناً وأسامها مكانة ، وهي نعمة مزدوجة ، فقد منح الله الإنسان ملكة العلم والتعلم ، وبهذه الملكة كوّن حضارته وثقافته ومعرفته وكل ما اتصل بذلك من العلوم والفنون . ولولا هذه الملكة لكان الإنسان مثل بقية الحيوانات ولكانت حاله لا تفترق في شيء عن حال السباع وغير السباع ، ولكان يعيش مثلها في الغابات فلا علماء ولا أدباء ولا شعراء ولا أنبياء يخرجونه من الظلمات إلى النور ،

ويوجهونه ليحيا في دنيا حياة كريمة يصلونها بحياة أخرى خالدة يختلف فيها الجزء باختلاف المعصية والطاعة . والله جلَّ شَأْنُهُ يُقَيِّدُ فِي آيَةِ نِعْمَةِ التَّعْلِيمِ بتعليم القرآن الكريم الذي أرسل به محمداً صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية ، وليلبغ بها المنزلة الرفيعة من السعادة في الدنيا والآخرة ، فقد جعله آخر كتبه السماوية وآخر تشريعاته الإلهية . وذكر مراراً أن المؤمنين يؤمنون بما أنزل من قبله على الرسل من الكتب ، وجعل هذا الإيمان جزءاً لا يتجزأ من الرسالة المحمدية ، فرسالة الرسول عليه السلام موصولة برسالة الأنبياء من قبله ، أو بعبارة أخرى شريعته موصولة بالشرائع السابقة ، وفي ذلك يقول عزَّ شأنه في سورة المائدة : ( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ) . فهو الدين الذي ارتضاه للناس ، وكأما كان كل دين قبله في حاجة إلى شيء من التعديل في بعض فروعه ليلائم الأجيال الجديدة ، فجاء الإسلام بالهدى الكامل الذي يلائم جميع الأجيال ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثلى الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا في موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ أأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » فهو خاتم النبيين ، وشريعته خاتمة الشرائع ، شريعة ترشد إلى جميع وجوه الخير وجميع وجود الحق . وعرف ذلك أدق المعرفة نفر من أهل الكتاب هداهم الله فأسرعوا إلى الإيمان برسوله ، وتوضَّح ذلك آية سورة الأعراف : ( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) . والآية صريحة في أن الإسلام يحطّ عن كواهل أهل الكتاب ما حملهم الإنجيل والتوراة من الإصر أو الثقل ومن الأغلال والقيود . ويضيف الذكر الحكيم إلى ذلك أنه جاء منقداً لأصحاب الكتب السماوية السابقة من اختلافاتهم التي سولها لنفوسهم الشيطان والتي أثارت بينهم الإحن والعداوة والبغضاء ، على نحو ما تصوّر ذلك آية سورة النحل : (تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) . إنه بيان قاطع لجراء أهل الكتاب وجِدالهم في حقائق الدين جدالاً أفضى إلى تنابذهم وتقاطعهم حتى ليكفر بعضهم بعضاً ، بما أغواهم الشيطان وزين لهم من سوء أعمالهم . والقرآن لا يسدُّ ثُلَمَةَ الخلاف بين أهل الكتاب فحسب ، بل أيضاً يصحّح ما أدخله أخبار اليهود وعلماء الديانات على الكتب السماوية السالفة من تحريفات ، على نحو ما توضّح ذلك آية سورة البقرة : (قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتَ آيَاتِهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ) . وقد وبّخ القرآن اليهود مراراً على إنكارهم أشياء في التوراة وسى مبثوثة فيها بمثل قوله في سورة المائدة : (يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ) ، كما وبّخهم على ادّعائهم أشياء في التوراة ، والتوراة منها براء ، بمثل قوله في سورة آل عمران : (قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . والقرآن بذلك كله يُصلح الفساد الذي دخل على نصوص الكتب السماوية ، كما يصلح نفوس أهلها بما يرفع من الخلافات الناشئة

بينهم ، ويُتَمِّمُ النور الذي جاءت به الرسالات الإلهية السابقة هداية ورساداً للناس . وبحقُّ دعاه الله (شِفَاءً وَرَحْمَةً) فهو شفاء للنفوس الكليمة من جروحها الدفينة وبلسم لآلامها وأوجاعها ودواء لا يماثله دواء . ثم هو رحمة بالناس ، رحمة لإنقاذهم من ضلالهم وخلافاتهم وافتراءاتهم على الرسل ، ورحمة بما دعا إليه من الحق وسعادة الجماعة الإنسانية وتعاون أفرادها على البرِّ والخير والعدل والإحسان واجتناب الآثام والبغى والظلم والعدوان . إنه أعظم شريعة أنزلت إلى البشر، أنزلها الله على رسوله لتكون نعمته النهائية على البشرية في تصوير الأصول الاعتقادية وتحقيق الكمال الإنساني .

وبذلك نفهم قوله تعالى في سورة التوبة : ( هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ) ، وقوله في سورة آل عمران : ( إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ) ، وقوله في نفس السورة : ( وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ) . فهو الدين النهائي الذي اختاره الله للناس جميعاً ، حتى يجتمعوا على دين سوايٍّ واحد ، مصدقٍ للديانات السابِقة ، ومصحِّحٍ لها ، ومبعدٍ عنها كل تحريف وكل زيف وإضافة لم تأت من عند الله . ويؤكد القرآن هذا المعنى مراراً ، فقد أرسل نوح وهود وشعيب كلُّ إلى قومه وكذلك أرسل موسى وعيسى ، يقول عزَّ سلطانه عن موسى في سورة إبراهيم :

( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) ، ويقول عن عيسى في سورة آل عمران : ( وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ) . فكل الرسل إنما أرسلوا مبشرين ومنذرين إلى أقوامهم ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لم يرسل إلى قومه في الجزيرة العربية وحدهم ، بل أرسل إلى الناس جميعاً على نحو ما تصور ذلك آية سورة

سبأ : ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ) . ومع ذلك فقد ترك القرآن لأجل الديانات حرية الاختيار بين الإسلام وبين دياناتهم تسامحاً كريماً ، قائلاً كما جاء في آية سورة البقرة إنه : ( لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ) . وهي نظرة رحيمة ، بل إن القرآن ليؤكد أن الاختلاف في الدين سنة من سنن الوجود ، إذ يقول جلّ شأنه في سورة هود : ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ) والله يسجل أن الناس سيظلون مختلفين ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ، ولكن حكمته اقتضت أن يظل الخلاف بينهم قائماً ، وإنه ليقول للرسول عليه السلام في سورة يونس : ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) .

ومما لا ريب فيه أن القرآن دعا دعوة قوية إلى الوثام بين الناس حتى يرأبوا ما بينهم من خلاف بقدر المستطاع . ومن أهم ما دعا إليه لإزالة جميع الفوارق العنصرية والإقليمية ، وأن تكون أعمال الناس موجهة دائماً إلى البر والخير ، وأن يجمعوا ما في دخائلهم من الغرائز السيئة ، وأن يسموا بنفوسهم ويرتفعوا عن كل نقيصة ودنية وكل مأرب من المآرب الحقيرة ، وأن يتعاطفوا مع الفقير والبائس المسكين ، مما جعل للفضائل والمثل الأخلاقية الرفيعة منزلة عظيمة في قلب كل مسلم . وبحقّ يقول عزّ ذكره : ( عَلَّمَ الْقُرْآنَ ) إنه تعاليم ومبادئ سامية في العقيدة وفي العمل وفي السلوك الفردي والجماعي ، تعاليم حرص على أن تتعلّم ، ودفع لكي تزدهر من حولها كل لغة العلوم ، ولولا القرآن وتعاليمه ما ازدهرت علوم التفسير واللغة والعربية وعلوم الفقه وأصوله وعلوم التاريخ التي نشأت أولاً حول قصصه وسيرة رسوله ، ولا علوم المواقيت والفلك ، ولا العلوم الكونية كالطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات وعلم

الجغرافيا وعلم طبقات الأرض وعلم المعادن ، فقد دعا إلى الوقوف على كل ذلك بمثل قوله في سورة يونس : ( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) . وبالاختصار كل ما نشأ عند المسلمين من علم وتفكير فلسفي فأصله ومردّه إلى القرآن والفقّه به ، وأيضاً كل ما نشأ عندهم من فنون ومن عناية بالمنطق والبلاغة والأخلاق والاجتماع . وقد نصّ القرآن على أن به آيات متشابهات يُشكل معناها وينبهم المراد منها ، وصوّر ذلك قائلاً في سورة آل عمران : ( هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ) . والآيات المحكمات هي التي تدل دلالة محدّدة على أصول العقيدة والعمل الصالح ، وهي واضحة صريحة لا تحتمل سوى معنى واحد ، وهي لذلك أمّ الكتاب التي تُحتمل عليها الآيات المتشابهات . وللعلماء في تفسير المتشابهات آراء كثيرة ، فمن قائل إنها المنسوخات والأقسام ، ومن قائل إنها ما تفيد تعارضاً بوجه من الوجوه مع غيرها من الآيات ، ومن قائل إنها ما احتمل من التأويل أوجهاً وإن المحكم ما احتمل معنى واحداً . ومن قائل إن المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة وغيره من أمور الغيب ، ومن قائل إنه آيات الصفات المجازية بالقياس إلى الله في مثل آية سورة طه : ( الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ) ومثل آية سورة الفتح : ( يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) وبالقياس إلى الأنبياء في مثل آية سورة النساء : ( إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ) . ولعل في كل ذلك ما يوضح لنا الرأيين

المتقابلين في الآية الكريمة ، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن كلمة (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) ابتداء كلام مقطوع عما قبله ، وبذلك لا يعلم المتشابهات سوى الله ويراد بها الغيب الذي لا يعلمه غيره ، ثم أثنى الله بعد ذلك على الراسخين في العلم بأنهم (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) . وذهب آخرون إلى أن كلمة (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) معطوفة على لفظ. الجلالة ، وبذلك يكون المراد بالمتشابهات النوع الذي لا يستأثر الله فيه بعلمه والذي يَشْرِكُهُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ الراسخون المثبتون بمعارضة آياته على الآيات المحكمة والعارفون بوجوه كلام العرب ومناحيه . وقد عبرت الآية عن ذلك بلسانهم إذ يقولون : (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) . والآية بذلك تضع المبدأ الأساسي لتفسير القرآن وهو عَرَضُ آيَاتِهِ بعضها على بعض حتى يتضح تفسيرها وتتضح دلالاتها ، وحتى يتم العلم بها علماً كاملاً . وهو علم شارك فيه الرسول عليه السلام ، فقد فسّر بعض آي الذكر الحكيم عملاً بقوله تعالى في سورة النَّحْلِ : ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ) ، فكان الصحابة كلما سألوه عن آية فسّرها لهم . وبقيت من تفسيراته بقية حملها الطبري وغيره من المفسرين ، وينبغي أن يضعها كل مفسر نُصِبَ عَيْنِيهِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى مَعَانِي الْقُرْآنِ وَقَوْفًا دَقِيقًا ، وهي معانٍ تُشْبِعُ حَاجَاتِ النُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ وَتَسَدُّ مَطَالِبِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ . ولعل في ذلك ما يفسر من بعض الوجوه سرعة انتشار الإسلام قديماً وثباته ورسوخه واستمراره على الرغم من كل صور العدوان التي سولتها لأعدائه نفوسهم الخبيثة لسبب طبيعي ، وهو أنه الدّين الذي اختاره الله للناس كافة بحيث يلائم طبائعهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم ونزعاتهم وأطوارهم الحضارية .

## (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) :

كلمة الإنسان في الآية الكريمة مطلقة غير مقيدة ، وهي بذلك تتناول جميع الناس ، وقيل المراد آدم أبو البشر . والأولى أن نأخذ بالمعنى العام ، لأن الله عزَّ سلطانه يتحدث في السورة عن نعمه على الناس ، وما دام من الممكن أن تشملهم النعمة جميعاً فأولى أن تفهم الآية على عمومها ، وأن يراد بخلق الإنسان الخلق الذي يبصره الناس في أنفسهم ، أما خلق آدم من طين فذلك خلق لم يعلموه إلا بالسمع والخبر عن الأنبياء والمرسلين ، وستُعنى آية مقبلة بتصويره . وقد ذكر الله خلق الإنسان في القرآن بصور مختلفة : مطلقة ومقيدة ، وكان أول ما أنزل على رسوله : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) والعلق القطع الصغيرة من الدم التي تتحول إليها النطف . ويصوِّر الله أطوار الإنسان ، أو قل أطوار خلقه في الرحم ، وكيف أنه يتطور به من طور إلى طور حتى يصبح إنساناً سوياً ، كما قال في سورة «المؤمنون» : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) . والله يذكر ذلك ليتدبر الإنسان نعمته عليه في الخلق والإنشاء والتكوين والتدرج به من حال إلى حال في الرحم . ثم جعل بعد ذلك يتعهدده بالعناية وبرسالته السماوية حتى كانت هذه الرسالة النبوية الأخيرة التي اختارها له ملائمة أدق الملائمة لفطرته . ودائماً يذكر القرآن الإنسان بخلق الله وإبداعه ، وأنه حرى به أن يشكر ربه على أنعمه

وَأَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ غُرُورِهِ أَمَامَ مُوجِدِهِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ :  
 (يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي  
 أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) وتسوية الإنسان في الخلق جعله سوياً منتظماً  
 الأعضاء مكتمل القوى النفسية والجسمية وقوى الحواس الظاهرة والباطنة .  
 وعدله جعله معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت في أعضائه ولا اضطراب .  
 وتصويره : لإيجاده في صور مختلفة من الذكورة والأنوثة ومن الطول والقصر ومن  
 الحسن وأنواعه على حسب مقتضى حكمته ومشيبته . ودائماً يعرض القرآن  
 على الإنسان نعمة خلقه وإبداعه الدالين على القدرة الإلهية والحكمة الربانية ،  
 حتى يرجع إلى ربه معترفاً شاكراً آلاءه عليه . ومن أعظم هذه الآلاء في خلقه  
 ما صورته الله في سورة البلد : ( أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ  
 النَّجْدَيْنِ ) . وربما كانت العينان أعظم الحواس جميعاً ، إذ بهما نبصر ما  
 حولنا في الكون ونرى روعة صنع الله في الوجود ، وحرى بكل ذي عينين أن  
 يؤمن بخالقه لما يرى من آياته الكونية الدالة على قدرته وما أودعت الكائنات  
 من عجائب وغرائب في الخلق والتكوين والتركيب . وبجانب نعمة البصر  
 نعمة الكلام التي يودها اللسان والشفتان ، وهي النعمة التي أتاحت للإنسان  
 كل ما اكتشفه من الكنوز الروحية والعقلية . وقد هدى الله الإنسان التجلدين ،  
 وهما الطريقتان المصعدان العاليان ، ويراد بهما في الآية طريقا الخير والشر ،  
 إذ نصب الله له فيهما من الأعلام ما يميز بينهما ليعرف الطريق الضار المهلك  
 فيبتعد عنه ، ويسلك الطريق النافع المثمر بما أعطاه من العقل الذي يفرق  
 به بين ما يلدُّه ويؤله ، وما يؤنسه ويوحشه ، وما يسأله ويعاديه . وإنما لنعم  
 في خلق الإنسان لا يحيط بها عدُّ ولا إحصاء ولا وصف ، نعم في صنعه وتركيبه

وصورته وهيئته ، ونعم فيما أعطاه الله من الحواس ، ونعم فيما أفاض عليه من العقل والتميز بين الخير والشر والنافع والضار والمكروه واليسار .

### (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) :

البيان الكلام وطبيعي أن يكون من علم الإنسان عالماً ، إذ لو كان غير موصوف بصفة العلم ما استطاع أن يعلمه ، بل أولى أن يكون أكثر منه علماً ، وإلا ما أمكنه منحه لسواه ، إذ لا بد من أن يملكه حتى يمنحه . ونفس خلقه الإنسان يدل على علمه وبصره بما خلق لِمَا أَحْكَمَ فِي تَرْكِيبِهِ وَأَتَقَنَ فِي خَلْقِهِ . ولا ريب في أن العلم كمال في المخلوق المحدث ، وكل كمال فيه إنما يستمد من ربه ، وطبيعي أن يكون به أخرى . ومعروف أن كل كمال في المعلول إنما ينبعث فيه من العلة . وقد ذكر القرآن غير مرة نعمة العلم التي أسبغها الله على الإنسان ودعاها لكي يفقهه ويتقنه . وكانت أول آيات نزلت على الرسول عليه السلام - كما مر بنا - آيات سورة العلق :

( أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ) . والتعليم بالقلم مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع العلم وإن عرض لوسيلته ، وهي القلم والخط . به والتدوين . وطبيعي أن يشمل التعليم الكتب السماوية وما تحمل من الهداية للبشرية . ومعروف أن العلم ضروب فهو تصور وتصديق أو إدراك وحكم ، وهو نظري وعملي ، وهو سمعي وتجريبي . وطرقه أو أدواته لا تنحصر ، فمنه ما يُدْرِكُ بالحواس ، ومنه ما يُدْرِكُ بالوجدان ، ومنه ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو عن طريق الاستنباط ، ومنه ما يدرك بالخبر الصادق . ولفضيلة العلم وشرف وسائله

أقسم الله بالقلم في سورة « ن » قائلا : ( وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ) ، كما أقسم بالكتاب وما يكتب فيه من الرقوق في قوله في سورة الطور : ( وَكِتَابٍ مُنطَوِّرٍ فِي رِقِّ مُنْشُورٍ ) ، وأمر رسوله أن يضرع إليه مستزيداً منه ومن نوره على نحو ما جاء في سورة طه : ( وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ) . وأسبغ على العلماء تشریفاً لا يماثله تشریف ، إذ أشركهم معه ومع الملائكة في الشهادة على أعظم حقيقة وهي التوحيد عمود الدين وقطبه ، إذ يقول في سورة آل عمران : ( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) ؛ وفي الحديث : « إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ، و « إن العلماء هم ورثة الأنبياء » ، وعنه عليه السلام أنه قال : « إن الملائكة تضع للعلماء أجنتها وتظلمهم بها » . وتؤكد آية سورة التوبة هذا الحوض الواسع على العلم والتعلم ، إذ يقول جلّ شأنه : ( فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ) ، وكأنه يندب إلى التفقه في شئون الدين كلّ مسلم حتى يعرف الأوامر والنواهي الشرعية والعبادات ووجوه المعاملات ، وحتى يعبد الله حتى عبادته فينيب إليه ويخشاه ويتوكل عليه . والرسول عليه السلام هو المعلم الأول لأمته وكان يرسل في القبائل من يعلمهم شئون دينهم ، حتى إذا رفعت روحه إلى الرفيق الأعلى تحول أصحابه إلى فقهاء يرشدون الناس . ونما هذا الصنيع نمواً واسعاً ، فإذا الدين الحنيف يُدرّس في كل حضارة ، للمسلمين وكل ما اتصل به من تفسير للقرآن ومن تشريع وحديث نبوي ، وفتح ذراعيه لكل ما لدى الأمم المستعربة من العلوم وألوان الفكر ، فإذا الأمة العربية تصبح سريعاً من أمم العلم والحضارة . وكل ذلك بفضل

هذه الدعوة الواسعة إلى العلم والتعلم ، حتى ليتمكن أن نسمى الإسلام دين العلم والمعرفة ، المعرفة المقرّبة إلى الله ، مما يتصل بدعوة الدين الحنيف ، والباعثة على الانتفاع بكل ما في الكون مما يتصل بالعلوم والفكر الإنساني عامة . والبيان الذي علمه الله الإنسان والذي تشير إليه الآية الكريمة يشمل تمكين الإنسان من إعرابه عما بداخله ويخالجه من الخواطر والأحاسيس والمشاعر ، وتمكينه أيضاً من إفهام غيره والفهم عنه ، وهو الذي يدور عليه العلم والتعليم . والأساس الأول للبيان هو اللغات التي بها يتكلم الناس وما تتضمنه ألفاظها من المعاني والمعارف والعلوم وكل ما كان منها وما يكون . والله يمتنُّ على عباده بأنّه أودعهم ملكات العلم الذي هيأهم للترقى من درجة إلى درجة أخرى حتى نالوا ما حصلوا عليه من حضارة ومدنية . ويدخل في البيان الذي أنعم الله على الإنسان بتعلمه القرآن الكريم ، وقد سمّاه في سورة آل عمران بياناً إذ يقول : ( هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ) وهو بلا ريب أرفع صور البيان ، صور لا يستطيعها البشر ، مهما أوتوا من البلاغة واللّسن والفصاحة وحسن البيان ، وفي ذلك يقول عزُّ سلطانه في سورة الإسراء : ( قُلْ لَّسِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ) ، ويقول في سورة هود : ( قُلْ فَآتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ) . وقد عجز العرب عن معارضة بيانه عجزاً تاماً ، مع دعوته لهم صباح مساء إلى معارضته ومحاكاته إن استطاعوا ، وكل يوم يزداد تحدياً لهم ، وكل يوم يزدادون عجزاً مع وصف القرآن لهم

ببلاغة المنطق وفصاحة اللسان من مثل قوله في سورة البقرة : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) ، وقوله في سورة الأحزاب : ( فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ) . فذلَّ ذلك على عجزهم عن محاكاة القرآن الكريم ، مع سهولة الكلام عليهم ، ومع جودة بيانهم ، وقد اندفعوا يغمدون ألسنتهم ويجردون سيوفهم ، غير أن المعجزة البيانية استعلت وانتشرت أضواءها في الجزيرة ، وسرعان ما أخذت تعم الدروب والمسالك إلى أواسط آسيا شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً . وكل ذلك بفضل بيان القرآن المعجز وما حمل للناس من هداية في الدارين . ولا ريب في أن البيان أعظم نعمة أضفاها الله على الإنسان ، إذ كانت به الرسالة المحمدية وبقية الرسالات ، وبه كانت العلوم والمعارف وكانت المدنيات والحضارات .

### ( الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ) :

الحُسبان مصدر بمعنى الحساب كالفُضْران بمعنى المغفرة . ومعنى الآية أن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر دقيق ونظام محكم دال على قدرة الله ، وأنه أودع الكواكب والأفلاك تدبيراً متقناً من لدن حكيم عليم ، تدبيراً يقوم على قوانين ، كل شيء يسير بمقتضاها ومقتضى الحكمة الإلهية ، فكل ما في الكون يسير وفق قوانين محكمة ، قوانين قائمة في تركيبه ، قوانين تدلُّ على ما انبثَّ فيه من نظام عجيب ، وهو نظام يشدُّ بعضه بعضاً لغايات إلهية مرسومة . وإن في مسيرة الشمس والقمر التي لا تخطئ نهاراً ولا ليلاً ما يدلُّ على أن وراءهما قوة عليا تسيطر على الكوكبين ، وتهديهما في

مسيرتهما ، إذ يسيران في طريق ثابت دون أى اختلال أو اضطراب ، بل دائماً اتساق والتشام وما يشهد بأن هناك إلهاً مدبراً يشرف على النظام الكونى جميعه إشرافاً يتيح له الإحكام والامتقرار . ويلفت القرآن مراراً إلى أن الكون جميعه بشمسه وقمره وأفلاكه مسخرٌ للإنسان ينتفع به ، والله بذلك يصور كيف كرمه ، فالكون كله فى خدمته ، وكل ما فيه خلق من أجله . فهو الكائن الرفيع الذى يتجلى فيه الله بجميع صفاته ، والذى جعله خليفة له فى أرضه ، فإذا هو مشدود إلى التراب ونظره معلق بأنوار السماء ، وفى مقدمتها أنوار الشمس والقمر المسخرة له ولنفعه . وإن ما يخضعان له من نظام دقيق لآية ما بعدها آية على وجود الكائن الأعلى وحكمته وقدرته ومشيئته ، وأن كلا من الكوكبين مسيرٌ إلى مستقرٌ مقدر له لا يحيد عنه مميئاً ولا يساراً ، وفى ذلك يقول جل شأنه فى سورة يس : ( وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) . أما الشمس فمعها الفصول التى تنتظم بها حياة الإنسان والحيوان والزرور ومعها النهار الذى يضرب فيه الإنسان فى الأرض باحثاً عن وجوه كسبه ومعاشه . وأما القمر فمعها الأهلة ، ومعها منازلها التى يسير فيها على مدار كل شهر ، يقول تبارك وتعالى فى سورة البقرة : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ) ، ويقول فى سورة يونس : ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ) ، فالغاية العليا من زيادة القمر ونقصانه واحتجابه واكتماله وتنقله فى منازلها معرفة المواقيت فى العبادات حجاً وغير

حجٌ في المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان . ومع القمر الليل والنوم الذي يستريح فيه الناس من أعباء العمل وأثقاله في النهار ، وفي ذلك يقول عز ذكره في سورة النبأ : ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ) ، والسبات الموت أى أن النوم كالموت يسكن فيه الجسم ويستريح ، وفي مقابل ذلك جعل الله اليقظة من النوم بعثاً إذ قال في سورة الفرقان : ( وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشوراً ) . والله جل شأنه يمتن على الإنسان بأن جعل له الليل كاللباس يدخل فيه ، فيسكن ويخلد إلى النوم والراحة والطمأنينة حتى إذا لاحت تباشير الصباح سعى في الأرض لكسب قوته ومعاشه . وبذلك ينظّم هذان الكوكبان : الشمس والقمر ، حياة الإنسان ، ويوزعها على نهارٍ عاملي نشيطٍ وليلٍ ساكنٍ مريحٍ . وهي نعمة ينبغي على الإنسان أن يقدرها حق قدرها ، وهو لا يقدرها بدقة إلا إذا تصور الدنيا لا يعمرها إلا كوكب واحد من الكوكبين ، فكانت ليلاً خالصاً أو نهاراً خالصاً ، إذن لا اضطربت شئون الإنسان وما استطاع أن يعيش ولا أن يرق منازل الرقي التي حققها له انقسام اليوم إلى نهار وليل ، ليعمل ويسكن ثم يعود إلى العمل ناشطاً بعد أن أخذ حظه من الراحة والسكون وانقطاع الحركة . وكل ذلك معناه أن حركة الشمس في فللكها ، وكذلك حركة القمر ، إنما هما من أجل الإنسان ومنفعته ومصلحته ، منة عليه من خالق الكون وصانعه .

( وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ) :

اختلف المفسرون في المراد بالنجم ، فقليل هو نجم النباتات ، وهو كل

ما ليس له ساق منها مثل البقول والأعشاب ، وقيل هو نجم السماء . أما الشجر فهو كل ما له ساقٌ صَغُرَ أو كَبُرَ من النباتات ، مثل القمح والشعير من الأشجار الصغيرة والنَّخْل والرُّمَّان من الأشجار الكبيرة . والسجود أصله العبادة لله والتذلل ، وهو نوعان : سجود عن اختيار وهو سجود الناس في مثل آية النجم : ( فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ) . وسجود عن تسخير ، وهو ما ذكره القرآن الكريم من سجود الملائكة والحيوانات والنباتات والجمادات والشمس والقمر والكواكب والنجوم لله ذى الجلال في مثل آية النَّخْل : ( وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) ، ومثل آية الرعد : ( وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ) . فكل ما في الكون يسجد لله إما طوعاً عن اختيار ، وإما كرهاً عن تسخير وانقياد ، كناية عن أن هذه الموجودات تنقاد إلى خالقها وأنها مخلوق صانع حكيم . وعلى تفسير النجم بالنبات الذى لا يقوم على ساق قيل معنى سجوده وسجود الشجر أن ظلالهما تفيء وترجع متحولة من جانب إلى جانب ، قبل الزوال وبعده ، منقادة لله مسخرة لما أَرَادَهُ لها من امتداد وانحسار ، وهو قول يستوحى آية النَّخْل : ( أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ) ، والمراد بالشئ الجبال والأشجار وأمثالهما مما ترجع ظلاله وتنتقل من حال إلى حال باختلاف ساعات النهار ، وإنها لتسجد لله منقادة لحكمه طائعة لما يصنعه بها قبل انتصاف النهار وبعده . أو في الضحى والعشى ، مستجابة لما يُنَزِّلُهُ بها من ازدياد وانتقاص وتحول ذات اليمين وذات الشمال ، وكان سجود النجم والشجر دوران الظل مبهما في أثناء النهار . وقيل سجودهما هو استقبالهما للشمس إذا طلعت ،

ثم ميلهما معها حتى تنكسر ظلالهما . والأولى أن يكون سجودهما عاماً ويراد به تسخيرهما لله ، وبالتالي تسخيره كلا منهما للإنسان كي ينتفع بهما في حياته أتم نفع وأكمله . واختار بعض المفسرين أن يكون النجم في الآية نجم السماء . وقيل سجوده أفرله . وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثماره . وهو تخصيص ويحسن التعميم ، وأن المراد بالسجود الطاعة والانقياد والاستسلام . والآية بذكرها نجوم السماء والشجر أو الأشجار تلتقى بمثل قوله تعالى المذكور آنفاً : ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) وكان النجم في الآية رمز ( ما في السموات ) والشجر رمز ( ما في الأرض ) فكل ما في السموات من نجوم وغير نجوم وكل ما في الأرض من شجر وغير شجر يسجد لله في خضوع تام له وفي انقياد كامل ليصرفه كيف يشاء ، وليتغنى به ما يريد من غاية . وهي غاية تتصل بالإنسان ، فكل ما في الكون سخره له وذلكه كي ينتفع به في حياته ، وفي ذلك يقول جل شأنه في سورة الجاثية : ( وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ) ، فكل ما في السموات وما في الأرض من أجل الإنسان وفي خدمته ولنفعته ، منة من الله وفضل وإنعام .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ) :

السماء ما يقابل الأرض ، والأصل إطلاقها على كل ما سما وعلا فوق المعمورة . وقد جاءت في القرآن بمعنى السحاب في مثل آية سورة الفرقان : ( وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ) ، وبمعنى المطر في مثل آية سورة نوح :

(يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) ، وقد يسمّى النبات سماء . ولكن أكثر ما يُراد بالكلمة في القرآن ما فوق العالم مما يواجه الأرض في مدارها . ويصور القرآن كيف أبدع الله السماء إذ يقول في سورة ق : ( أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ) ، والله جَلَّ شأنه يلفت إلى رَفَعِ صَرْحِهَا وبنائها بدون عمد وعلائق ، كما يلفت إلى أنه لا يوجد فيها عيب في الخلق ، وهو ماكنى عنه بالفروج أى الشقوق ، فليس في خلقها وإبداعها أى خلل ، مع ما يلاحظ من الكواكب التى تزينها كما تزيّن المصابيح السقوف . ويقول في سورة الصافات : ( إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ) فالسماء الدنيا زُيِّنَتْ بالكواكب والنجوم زينة رائعة . ورفَع اللهُ السماءَ فى الآية إشارة إلى أنها مرفوعة بقدرته ولا ممسك لها سواه ، وقد يفيد التعبير بالرفع شرف منزلة السماء على نحو ما يلقانا فى سورة الشرح إذ يقول للرسول عليه السلام : ( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ) . والله يقصد بذكر السماء ما قصده بذكر الشجر والنجم والقمر والشمس ، فالسماء وكل ما فيها والأرض وكل ما فيها مسخر لله ، وهو قد سخّر للإنسان ، منةً عظيمة من مننه الكثيرة . ومعنى قوله جَلَّ وعزَّ : ( وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ) أنه وضع العدل ، فالميزان فى الآية هو العدل والتوازن ، وقد شرعه الله فى كل شىء من خلقه بحيث جعله قانوناً عاماً ينتظم به الكون وتنتظم به كائنه وعناصره ، فكل شىء فيه خُلِقَ بالعدل والتوازن فى تكوين أجزائه ، بحيث لا يطغى جزء على جزء ، بل لكل جزء قدره بقسطاس مستقيم لا يميل يمينا ولا شمالاً ، قسطاس محكم أشد ما يكون الأحكام . وعلى نحو ما خُلِقَ كل شىء بالعدل فى تركيب أجزائه ، خُلِقَ أيضاً بالعدل والتوازن بينه وبين نظائره ، بحيث تطرد فى

الكون نظم دقيقة لا تدخل أي تفاوت بين شيء ونظيره فيما ينبغى أن يسودهما من نسق أو قواعد وقوانين . فليس هناك جور ولا ظلم في خلق الشيء في ذاته ولا في خلقه مقروناً إلى غيره من أشباهه . وإذا كان هذا العدل يُطلَبُ في مصنوعات المخلوقين بحيث إذا بنوا بيتاً طلبوا العدل والتوازن فيه بين حيطانه وأجزائه ، وكذلك إذا صنعوا كرسيّاً أو أي شيء من الصناعات البسيطة طلبوا فيه أن تتعادل أجزاؤه حتى لا يقع فيه الاضطراب والفساد ، فأولى للصانع الأعلى أن يقيم مصنوعاته جميعاً على قانون العدل والتوازن ، فلا تفريط في شيء ولا إفراط من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، على نحو ما يلاحظ . مثلاً في الكفِّ وأصابعها فإنها لم تجعل كخُفِّ البعير دون أصابع ، ولا جعلت الأصابع على قدر واحد ، بل جعلت متفاوتة في القدر حتى يُنتفع بها ويمكن تعاونها في القبض على الأشياء والإمساك بها ، وفي ذلك يقول عزُّ شأنه في سورة الفرقان : ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ) أي سَوَّاهُ وَعَدَلَهُ في صورة مقدرة مقيسة عليه ، تحقق المصلحة المبتغاة له وجوداً وزماناً ومكاناً ، صورة مسوَّاة تهيئه للحكمة الإلهية العليا ، وهي الهدى ، إما تسخييراً وانقياداً ، وإما تعليماً عن طريق الأنبياء والمرسلين ، كما قال تبارك وتعالى في سورة طه :

( أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ) . وكل ذلك شاهد على أن أساس الخلق جميعه العدل ، فهو القطب الذي يدور عليه الكون ونظامه . وقد أمر الله به في مصالح الناس وشدّد فيه ، كما قال جلّ ثناؤه في سورة النحل :

( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ) أي في القول والفعل والحكم وسياسة الرعية ، وفي ذلك يقول عزُّ ذكره في سورة النساء : ( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ) ، وكرّر مراراً قوله :

( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ) أى الذين يحكمون بين الناس بالتوسط والعدل ،  
 وفى الحديث : « إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين  
 الرحمن » منزلة رفيعة لهم ونعمة كبيرة .

( أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ \* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا  
 الْمِيزَانَ ) :

الطغيان تجاوز الحد والقدر ، واختلف فى كلمة الميزان الأولى هنا ،  
 فقيل المراد العدل مثلها مثل كلمة الميزان فى الآية السابقة ، ويكون الطغيان  
 بذلك الجور والظلم . وقيل بل الميزان هنا هو الميزان الحقيقى الذى يوزن به ،  
 وبذلك يكون الطغيان فيه الحيف فيما يزنه ، وفسره بعض المفسرين بالزيادة  
 فى الوزن وبعضهم فسره بالبخس والنقص ، ويمكن أن يشمل الطرفين ،  
 ففى كل منهما اعتداء وظلم . والأولى فى الآية أن نأخذ بتفسير الميزان فيها  
 بمعنى العدل ، والله بذلك يأمرنا أن نقيم حياتنا فى كل ما نأتى وندع من  
 الأمر على العدل الذى يتصف به والذى أقامه قانوناً فى الوجود لا ينبغى الخروج  
 عليه ، وإلا تعرضت حياتنا للفساد والاضطراب . وذهب الزمخشرى إلى أن  
 الميزان فى الآية وسابقتها ولاحققتها هو الميزان الحقيقى الذى تُوزنُ به الأشياء وتُعرف  
 مقاديرها ، ويُضعف رأيه قوله تعالى فى سورة الشورى : ( اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ  
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ) ، وقوله فى سورة الحديد : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا  
 بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . ) . والآية  
 الثانية تلتقى مباشرة مع آيات هذه السورة ، فالله جلَّ شأنه أرسل الرسل وأنزل

معهم الكتب التي تحمل شرائعه لهداية الناس وإسعادهم في الدارين ، وأنزل مع الكتب الميزان . ومن المؤكد أن الميزان في آية سورة الحديد لا يُراد به الميزان الذي يصنعه الناس ، فإنه ليس بمنزّل من لدن الله ، وإنما يُراد به العدل الذي أنزله في كتبه وأمر به الناس ، وهو العدل الذي يَنْهَى عن البغى والجور وارتكاب أى إثم أو مَعْصية والذي يدعو إلى الإنصاف في المعاملة والحكم . وقد أنكر الغزالي أن يكون الميزان في الآية هو الميزان الحقيقي كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان يقول : « أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُرِّ والشَّمير والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيَّار والقَبَّان (ميزانان) ما أبعد هذا الحُسبان وأعظَم هذا البُهْتان ! فاتَّقِ الله ولا تتعسف في التأويل ، واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله ومُلْكِهِ وملكوته لتُتعلَّم كيفية الوزن به من أنبيائه ، كما تعلّموا من ملائكته . والخلق كلهم يتعلّمون من الرسول ، ما لهم طريق في المعرفة سواه . » والغزالي لا يريد المعرفة من حيث هي ، وإنما يريد ثمرتها من العدل في جميع الأمور ، ولن يتم للخلق ذلك إلا بعد المعرفة الشاملة لأوامر الشريعة ونواهيها والوقوف على ما نصّت عليه من الخبيث والطيب والعمل السيئ والعمل الصالح ، وحينئذ يقوم الناس بالقسط أو العدل على مصابيح هادية من الدين الحنيف ، وهو نفسه ما عبّرت عنه آيات الرحمن ( وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ) ، فقد وضع الله الميزان أو العدل في مصنوعاته وجميع مخلوقاته وجعله جوهرًا قائمًا في تراكيبها ، وشرعه للناس في رسالاته ، حتى يلتزموه في جميع الأقوال والأفعال ، وحتى يصدروا عنه في جميع معاملاتهم وجميع موازينهم على اختلاف آلائها من طيَّار وقَبَّان وقسطاس ومكيال .

وقد طلب منهم في مواضع مختلفة من القرآن أن يوقوا الكيل والميزان حتى يأخذ صاحب الحق حقه دون أى زيادة وحتى يُعطى حقه دون أى نقصان أو بَخْس ، على نحو ما نقرأ في آية الأنعام: ( وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ . ) وقد توعد ، عزَّ سلطانه ، الباخسين حقوق الناس في المكيال والميزان ، على حين إذا اكتالوا لأنفسهم أو وزنوا استوفوا ما يزنونه ويكيلونه من غير نقص ، بل ربما احتالوا على زيادته بكَبْس الكيل وتحريك الميزان ، وفي ذلك يقول القرآن : ( وَبَلِّغْ لِلْمُظَفَّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اُكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ) ، ويُروى عن مالك بن دينار أحد الزهاد الأولين أنه دخل على جارٍ له بالبصرة وهو يُحتَضِرُ ، فراه مرتاعاً روعة شديدة ، فلما سأله مالك : ما يروعك ويفزعك ؟ قال له : يا مالك .. جَبَلان من نارٍ بين يديّ أُكَلِّف الصعود عليهما . يقول مالك : فسألت أهله ، فعرفت أنه كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأما الناس فلهم المكيال الناقص يبخسهم حقوقهم ، وأما هو فله المكيال التام يستوفى به حقوقه ، وقد يزيد فيه حسب ما تُسَوَّل له نفسه . ويقول مالك : فدعوت بالمكيالين فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، ثم سألت الرجل ، فقال : ما يزداد الأمر على إلا عِظْماً . ويقول تبارك وتعالى : ( وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ) والإخسار النقص والبخس . وأخذ بعض المفسرين مع الزمخشري بظاهر الآية ، فقالوا الميزان فيها هو الميزان الحقيقي ، وأن المراد لا تنقصوا الميزان ولا تطفّفوه ولا تبخسوا الموزون فيه ولا تغبنوه . وذهب آخرون إلى أن الميزان في الآية ميزان العدالة الإلهية يوم القيامة الذى توزن به أعمال الناس الحسنة والسيئة وزناً عادلاً دون أى ظلم أو أى بَخْس ، وفي ذلك يقول الله عزَّ شأنه في سورة

الأنبياء : ( وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ) . والآية بهذا المعنى تشير إلى ما ينبغي أن يتحراه الإنسان في معاملاته وفيما يأتيه من كل أموره وشؤونه في الوزن وغير الوزن من العدل الذي لا تستقيم الحياة بدونه حتى لا يخسر ميزانه يوم القيامة أو حتى لا يعرضه للخسران .

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ \* فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ \* وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ) :

الأنام : الناس ، وقيل الإنس والجن . والفاكهة ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار جميعها ، وقيل الفاكهة الثمار ما عدا التمر والرمان ، وكان القائل نظر إلى هذه الآية والآية التي ستأتي القائلة (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) . والأولى أن يكون ذكر الرمان والنخل من باب ذكر الخاص بعد العام . والأكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع ، وقيل الأكمام : ألياف النخلة المستديرة حول أعناقها . ويدخل في الحبّ القمح والشعير وكل حبّ يُقْتَات به . والعصفُ قيل غلاف حبّ القمح المعروف باسم التبنّ ونحوه في الحبوب الأخرى مما تأكله الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، وقيل : ورق الشجر والزرع ، وقيل الورق المجتمع الذي تكون فيه السنابل ، وقيل أوراق النبات الذي له ساق ، تلك التي تخرج من جوانبه ، كأوراق السنبله من أعلاها إلى أسفلها . والريحان كل بقلة طيبة الرائحة أو هو الريحان المعروف الذي تفوح ساقه وأوراقه برائحة طيبة . وقرئ (والريحان) بالجر عطفاً على

العصف ، وقيل في هذه القراءة العصف ساق الزرع والريحان ورقه . وقيل العصف المأكول من الزرع والريحان مالا يؤكل لأنه يشم ولا يؤكل . والله جلّ وعز يذكر لعباده وضعه الأرض لهم وتهيتها لكي يعيشوا فيها ، وقد ردد ذلك وصوره مراراً وتكراراً في الذكر الحكيم ، فهو قد جعلها مهاداً لهم وفراشاً وبساطاً يتقلّبون فيه ، وهو قد جعلها مستوية ليسلك منها الناس طرقاً واسعة ، وأرسى فيها الجبال ، وشقّ الأنهار ليرتوي منها الإنسان ويستخدمها في زرعها ، ويتخذ حدائق ذات بهجة تتفجر المياه خلالها تفجيراً . وبوأها له مساكن يتخذ من سهولها قصوراً وينحت من جبالها كهوفاً وبيوتاً ، وأخرج له ألواناً من الثمرات والنباتات والمراعى رزقاً له ولأنعامه ، وفي ذلك يقول جلّ شأنه في سورة عبس : ( فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخَلاً وَحَدَائِقَ غَلْباً وَقَاقِئَةً وَأَبْأَ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِالْأَنْعَامِكُمْ ) والله يصور تهيته القوت للإنسان وحيواناته بما يُنزل من الغيث المدرار وما يشقّ من الأرض صغراً وكبّراً ليُنبتَ فيها زروع الحبّ مثل الحنطة والشعير والذرة ، ولينبت فيها الزيتون وثمار الفاكهة مثل العنب والتمر والحدائق الغلب أو العظام المملوءة بالأشجار والزرع من كل نوع مما يطعمه الإنسان . والقضب : الرطب ، ومعنى الأبّ المرعى مما تأكله الأنعام . ويقول عزّ ذكره في سورة الرعد : ( وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْبُرٌ صِنْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ لُبَّغُضَهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْلِ ) . والله يريد بالقطع المتجاورات أنه نوع في قطع الأرض حتى تمد الإنسان بزروع وثمار متنوعة ، وصوّر ذلك فيما ذكره من جنّات الأعناب والزرع من كل شكل . وحتى

النخيل نوع في النخلتين أو الثلاث تخرج من أصل واحد ، وبذلك تكون صنواناً أو متماثلة ، حتى إذا طعمنا منها وجدنا ثمارها مختلفة في الطعم مع أنها من أصل واحد وتسمى بما هو واحد . وهي مِنَّةُ اللَّهِ على الإنسان أن ينوع له في طعامه لا من حيث الاختلافات في النوع العام ، بل أيضاً من حيث الاختلافات في النوع الخاص ، حتى لتعد ألوان التمر وحده بالعشرات ، وإلى ذلك يشير جَلِّ ثَنَاوَهُ في آية سورة الأنعام : ( وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ) ، وفي كل ذلك ترفيه للإنسان ومتاع أى متاع . ويكرر القرآن أن الله ذَلَّلَ للإنسان الأرض وكل ما فيها لخدمته ومنفعته . ومن تنمة هذه المن أن جعل الدين الحنيف كلَّ مكان في الأرض وكل موضع فيها صالحاً لأن يُعْبَدَ فيه الله وأن يصلى له ويُرَكَعَ ويُسَجَدَ ، فكلُّ الأرض معبد أو مكان لعبادة المسلمين : المساجد ذات المحاريب والزوايا والبيوت وكل مكان خارجها في الحدائق على حافات الزروع وفي الحقول . ومن أجل ذلك كان المسجد يطلق في الإسلام على كل مكان يُعْبَدُ فيه الله ، وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام : « جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتَرِبَتِهَا طَهْرًا » ، فكل أرض الإسلام مسجد طاهر ، وهو تكريم لحمى الإسلام ، فهو ليس وطناً فحسب ، بل هو وطن روجى مقدس .

( فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

الآلاء : النعم ، والآية تشير إلى النعم السابقة التي أسبغها الله على الإنسان ، وفي مقدمتها نعمة إنزاله القرآن الكريم ليكفل له سعادته في

الدارين، ثم نعمة خَلَقَهُ وإعداده للعلم والتعليم واكتساب جميع المعارف الدنيوية والأخروية ، ثم تسخير الشمس والقمر وكل ما في السماء من نجوم وأفلاك وكل ما في الأرض من أشجار وغير أشجار ، تسخير ذلك كله للإنسان كي ينتفع به أكبر انتفاع . وكأنما هو محور العالم والكون كله يدور في فلكه . وقد أودع الله الوجود نظاماً محكماً يقوم على العدالة ، وطلب إلى الإنسان أن يستلهمها في كل تصرفاته . ومهد له الأرض كي يعيش بطيباتها معيشة راضية ، وكل تلك آلاء ونعم عظيمة . والخطاب في الآية الكريمة للإنس والجن ، يشهد لذلك أن الله سيتحدث عقبها عن خلق الإنسان وخلق الجن وسيخاطبهما بقوله : ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ) وبقوله : ( يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ) فالكلام موجّه للثقلين جميعاً . وقيل الخطاب للإنس فقط. على عادة العرب في خطاب الواحد بلفظ المشى على نحو ما هو معروف في مطلع معلقة امرئ القيس : «فَمَا نَبِّكُ» غير أن نسق السورة كما ذكرنا يجعل الرأى الأول هو الصحيح . وقد ذُكر الله في الآية باسم الربّ من التربية وهي التدرج بمخلوقاته من الإنس والجن شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الكمال . وفي كلمة الرب معنى الملك والاستحقاق ، فهو الرب صاحب الكون القائم عليه ، وهو رب الإنسان الذي يرعاه ويرقى به مادياً وروحياً في دنياه وآخرته ، وحرى بالإنس والجن جميعاً أن يتلقيا نعم ربهما بالشكر والحمد وأن يعبداه ولا يشركا به أحداً ، بل يخلصا له في عبادته ظاهراً وباطناً ، وإلا كانا كافرين بأنعم الله وما أسبغ عليهما من آلاء ، أقلُّ ما ينبغى عليهما إزاءها الابتهاهُ إلى الله بالشكر والإنابة إليه أصدق الإنابة .

( خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ • وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ • فَبَيَّأِ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ) :

الإنسان هنا أبو البشر آدم ، والجان أبو الجن والشياطين إبليس ، أو هو أبو الشياطين وحدهم . والصلصال الطين اليابس غير المحروق إذا نُقِرَ بإصبع أو يد تكون له صلصلة وصوت ، فإذا أُحْرِقَ بالنار فهو الفخار . والمارج اللهب المختلطة ألوانه الحمراء والصفراء والخضراء لشدة ناره . وقد ذكر القرآن في مواضع مختلفة منه خَلَقَ آدم ، فقال في سورة البقرة : ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) ، وكان الله كان قد أعلم الملائكة قبل إخبارهم بخلقه آدم أنه سيكون في الأرض خلق يفسدون ويسفكون الدماء ، ولذلك توجهوا إليه بسؤالهم ، فقال لهم : ( إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) لعلمه أنه سيكون فيهم أنبياء وعباد صالحون . وقد سَمَّى الله آدم في الآية خليفة له في الأرض تكريماً له وبياناً لسمو منزلته عنده ، وأشرك معه في هذه الخلافة جميع ذريته كما قال في سورة فاطر : ( هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ) . وهي منزلة رفيعة وضع الله فيها آدم وذريته إذ جعلهم جميعاً خلفاء له في الأرض ، فكان ينبغي أن يقوموا بحقوق هذه الخلافة فيوحدوه ويعبدوه ولا يفسدوا في الأرض التي ائتمنهم عليها ولا يسفكوا الدماء . وعلم الله بذلك لم يصرفه عن خلافتهم له ، منة فوق منة ، وكل ذلك تكريم للأب وبنيه وتشريف . وقد ذكر الله الأطوار التي مرَّ بها آدم في خلقه ، فقال في سورة آل عمران إنه

(خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وهو أول طور له في الخلق . ثم ألقى الله على التراب ماء فتحوّل طيناً ، وفي ذلك يقول في سورة صّ للملائكة : (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) ويسودّ الطين ويتغير، فيصبح حمّاً ، ويجف حتى يُصلّصل ويصوّت عند نقره فيصبح صلصالاً ويتخذ شكله الإنساني ، وفي ذلك يقول الله للملائكة في سورة الحجّير : (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ومعنى كلمة مسنون مصبوب ، وقيل معناها مصور من سنّة الوجه وهي صورته . وتخيّل بعض المتصوفة أنّ الله بعد أن سوّى الإنسان صلصالاً صبّ عليه ماء الأحزان ، وهذا هو السر في أنّ كل إنسان يعاني حزناً . وفي الحديث النبوي : « إن الله عزّ وجلّ خلق آدم من قبضة تراب قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدرها ، فمنهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسّهل والحزّن ، والخبِيث والطيب » . ويذكر الله في سورة الأعراف أنه قال للملائكة حين يتم خلق آدم ويتكون إنساناً وأنفخ فيه من روحى يجب أن يسجد كل منكم له ( فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ) . ويتكرّر في القرآن ذكر هذه الحادثة ، وهي قوية الدلالة على إكرام الله آدم ، فقد أمر الملائكة أن تسجد له تحية وإيذاناً بأن قوى الخير في الكون وعلى رأسها الملائكة ستمد الإنسان بينابيع لا تنفد من النفع في تسخير الكون له . والملائكة من عالم الأمر ، وهو عالم غيبى أمرنا بالإيمان به وبكل ما جاء به الرسل عنه ، سواء ما اتصل منه بالله أو بالملائكة أو باليوم الآخر . وهو يقابل عالمنا عالم الخلق وحقائقه الحسية . ومعروف أن الملائكة خلقوا من نور خالص ، وأنهم أجسام لطيفة وليس فيهم ذكور

وإناث ، وهم لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون . ومعروف أيضاً أنهم يتنزّلون بالوحي على الرسل ، وأنهم يسجلون أعمال الناس الطيبة والسيئة ، وأنهم يتوفّون الأنفس حين موتها ، وكما جاء في سورة التّحريم : ( لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) فهم دائماً صاعدون بأمره وطاعته ، وبذلك خرجوا عن نطاق التكليف . وأعطى الله آدم كرامة أخرى إذ يقول في سورة البقرة : ( وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ) . وتعليم آدم الأسماء كلها أسماء الأجناس والأنواع لعله رمز لما وضع في وعيه ووعى ذريته من قوة وبصيرة على العلم والتعليم مما لم يهبى له الملائكة ، إذ لم ينعم عليهم بعقل كعقل الإنسان يستكشف الوجود ويحلّ ألغازه وأساره . ويذكر الله أنه عاقب إبليس لإيائه السجود لآدم واستكباره فطرده من الملائكة الأعلى وكتب عليه الذلّة والهوان . وصمم لإبليس على الانتقام لنفسه من آدم وذريته بما يوسوس لهم من العيّ والفساد . وكان الله قد أكرم آدم وزوجه حواء فأسكنهما الجنة دار الثواب في الآخرة بإجماع المفسرين لا يجوعان فيها ولا يغرّيان ولا يظمآن ، وحذره من إبليس وغيّه ، وأمره ألا يأكل من شجرة بعينها . وانتهاز إبليس الفرصة فوسوس لآدم أنها شجرة الخلد ، ونسى آدم أمر ربه فأكل هو وزوجه من الشجرة المحرّمة نسياناً لا عن عمد وقصد إلى المعصية ، فبدت له ولحواء سواتهما واستحوذ عليهما الحياء فأخذوا يلصقان على جسمهما أوراق الجنة ، واعترفا لربهما بزلاتهما ، سورة الرحمن

وتضرعاً إليه أن يغفر لهما ، فشملهما بواسع مغفرته ، وأمرهما بأن يهبطا إلى الأرض لتكون سكناً لهما ولذريتهما . ويهبط معهما إبليس اللعين . ويذكر القرآن في سورة الكهف أنه لم يكن من الملائكة وإنما ( كَانَ مِنَ الْجِنِّ ) وقد سماه الله هنا ( الجان ) كما سَمَّى آدم ( الإنسان ) وقال إنه مخلوق من لهب النار . والجن كالملائكة عالم غير مرئي ، غير أنهم مخلوقون من نار لا من نور ، ويتوالدون كالإنس ، وفيهم ذكور وإناث . وهم مثلنا مكلفون كما يشهد بذلك خطاب الله لهم وللإنس في سورة الأنعام إذ يقول : ( يامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ) ، فمن الجن كفار كما ندل هذه الآية وهم الشياطين الذين يغوون الناس ويدفعونهم إلى ارتكاب الشرور والآثام ، ومنهم مؤمنون آمنوا بالرسول واهتدوا بهديهم . وليس للجن رسل خاصون منهم بل رسلهم هم نفس رسل الإنس ، وشرائعهم هي نفس شرائعنا ، وقد كَلَّفُوا مثل الإنس بالشرعية المحمدية كما يدل على ذلك ما جاء في سورة الأحقاف من قوله تعالى : ( وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ) وفي سورة الجن : ( قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ) . وهي آيات صريحة في أن الرسول عليه السلام أرسل

إلى الإنس والجن جميعاً . وجاء في آثارٍ ضعيفة أن النفر المذكور في الآيات كان سبعة أو تسعة من جنِّ نَصِيبِينَ أو نَيْنَوَى وأنهم استمعوا إلى الرسول يتلو القرآن ليلاً أو في صلاة الفجر بوادي نَخْلَةَ قرب مكة . وجاء في بعض الأحاديث أنه أمر بالقراءة على الجن في إحدى الليالي . وَضَعَفَ الحفظ الأثبات هذه الأحاديث والآثار ، وعن سعيد بن جُبَيْرٍ : « ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو في صلاته ، فَمَرُّوا به ، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم » . وتدل على ذلك الآيات السالفة ، فإنه إنما عرف استماع الجن له بوحى من الله لا عن لقاء ورؤية ومشاهدة . ولا ريب في أن ما أفاضه الله على الجن في خلقه من النعم كان ينبغي أن يدفعه إلى الشكر على آلائه لا إلى الجحود والكفران ، وبالمثل الإنسان فقد أسبغ عليه نعماً كثيرة في خلقه وأطواره ، وسخر له الكون بكل ما فيه من شمس وقمر وأفلاك وكواكب وطيور ونباتات وحيوانات . وإنه ليقول للثقلين من الإنس والجن : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في هذا الخلق وما أعدَّ لكما فيه مما يحفظ عليكما وجودكما ، ومما يهديكما إلى الغاية التي خلقتما من أجلها هداية مستمرة باقية .

( رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

جاءت كلمتا المشرق والمغرب في القرآن مفردتين في مثل آية سورة المزمل : ( رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ) . وجاءتا مجموعتين في مثل آية سورة المعارج : ( فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ) . والمراد مطلع كل يوم ومغربه ، ولذلك جاءت الصيغة بالجمع . وقيل المراد بهما في الآية مشرقا الشمس صيفاً وشتاء ومغرباها ، وكان المراد بالثنائية مطلعها في أطول يوم من السنة

وفي أقصر يوم ، وكذلك المغربان ، ويتناول الطرفان كل ما بينهما . وقيل  
المشرقان : مشرق الفجر ومشرق الشفق ، والمغربان : مغرب الشمس ومغرب الشفق .  
وقيل بل المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس . وقيل المراد مشرق الشمس  
ومشرق القمر ومغرباهما ، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح ، لاتصاله  
بالآية السابقة في السورة : ( الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ) ، ولأنَّ دلالة التثنية  
حينئذ واضحة . والمراد رب مشرق الشمس والقمر ومغربيهما وما بينهما من  
الموجودات قاطبة ، فهو رب الوجود كله القائم عليه وعلى نظامه وما يجري فيه  
من الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر وغروبهما . إنه مرسل النور والظلام  
في العالم ، يخلط كلاً منهما بصاحبه ، ثم يفرده ، آية كبرى من آياته  
الكونية ، ونعمة جُئِي من نعمه ، فالناس لا يسيريون في عمياء على غير هدى ،  
بل ما تلبث كل يوم تُشير لهم الوجودَ مصابيح الشمس والقمر ، التي ينشرها ربهم  
في أرجاء الكون . والتعبير بالرب هنا دون ذكر اسمه الأعظم ( الله ) للدلالة  
على أنه ما يزال كُلُّ يوم ومع كل مطلع شمس وقمر ومغربيهما يربِّي الإنسان ،  
أو يقوم على تربيته والرقِّ به من حال إلى حال . رُفِيًا ينمو مع كل يوم  
ومع كل صباح . إنها ليست ألوهية جبروت وقهر ، بل هي ألوهية تربية  
وتعهد ورحمة ، ألوهية نعم على الإنسان لاتكاد تحصى أو تستقصى ، نعم  
تسخَّر له الكون وتيسر له الانتفاع بعناصره على خير وجه . وكأنَّ الكون  
منقاد إليه بزمائه ، فالشمس والقمر إنما يجريان من أجله ، لتكتحل عيناه  
بالنور ، وليبصر الدنيا من حوله . وليس ذلك فحسب ، فإن مع اختلاف  
مشارك الشمس والقمر ومغاربهما اختلاف الفصول على مدار العام ، لكي  
ينتفع الإنسان بكل فصل وجوّه وزروعه ، وليجد من الاختلاف في ذلك

متاعاً لنفسه . وحرى بالإِنس والجن أن يشكروا هذه النعم المتصلة ولا يكفروها ،  
نعمة نور الشمس وضياء القمر ، ونعمة الاختلاف بين المشرق والمغرب ونعمة  
الاختلاف بين الفصول ، ونعمة الوجود الكوني كله .

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ \* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ \*  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

مرج تأتي بمعنيين : أرسل وخطط ، يقال مرج الإبل في المرعى إذا أرسلها  
فيه ، كما يقال مرج الماء واللبن إذا خلطهما ، وإذن فقوله تعالى : (مَرَجَ  
الْبَحْرَيْنِ) إما أن يكون بمعنى أرسلهما متجاورين متلاقين لا فصل بين ماءيهما  
في مرأى العين ، وإما أن يكون بمعنى خلطهما فهما يلتقيان . والمعنى الأول  
أولى لذكر البرزخ الحاجز بينهما في الآية . واختلفت الآراء في المراد بالبحرين ،  
قيل بحر السماء وبحر الأرض ، وقيل بحر فارس (خليج العرب) والبحر  
المتوسط . ، وقيل بحر المشرق والمغرب المذكورين بالثنائية في الآية السابقة .  
وقيل البحر الملح والنهر العذب ، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح لقوله  
تعالى في سورة الفرقان : ( وَهوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ  
وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ) وكان الله سمى ماء  
النهر الكثير الواسع بحرًا . والفرات شديد العذوبة والأجاج نقيضه .  
والبرزخ : الحاجز بين الشئين ومثله الحِجْرُ في آية الفرقان ، أو لعل معنى  
(حِجْراً مَحْجُوراً) سترًا مستورًا . وهذا البرزخ والحجر إما حقيقيان بمعنى  
أن بين البحرين برزخاً من اليابسة ، وكان الآية عن مطلق البحر العذب والبحر  
الملح ووجودهما على ظهر المعمورة ، وإما مجازيان بمعنى قدرة الله . وَيَجْرِي

مع ذلك فهمان متقابلان ، فهنَّ يمثله التقاء الأنهار بالبحار والمحيطات وأن  
كلا من المائين العذب والملح لا يتجاوز حده ، وهو معنى (لَا يَبْغِيَانِ) فكل  
منهما لا يبغى على صاحبه ولا يطغى عليه بالممازجة والاختلاط . وفهم ثان  
أعم وهو قدرة الله على أَنْ خَلَقَ البحار ملحةً والأنهار عذبة . والتقاؤهما ليس  
التقاء حقيقياً وإنما هو التقاؤهما في مرأى العين ، بمعنى أن الإنسان يراهما ،  
وإذا رأى أحدهما تذكر صاحبه . ويذكر بعض المفسرين تعليلاً غريباً لخلق  
المياه الملحة والعذبة ، إذ يقولون إن الله تعالى كلَّم المغرب أو الناحية الغربية  
فقال إني جاعل فيك عباداً لي يسبِّحونني ويكبرونني ويهللونني ويمجدونني  
فكيف أنت لهم ؟ فقال المغرب : أغرقهم يارب ، فقال الله إني أحملهم  
على يدي وأجعل بأسك في نواحيك . ثم كلَّم المشرق أو الناحية الشرقية ،  
فقال : إني جاعل فيك عباداً لي يسبِّحونني ويكبرونني ويهللونني ويمجدونني  
فكيف أنت لهم ؟ قال : أسبِّحك معهم إذا سبَّحوك ، وأكبرك معهم إذا كبروك ،  
وأهللك معهم إذا هللوك ، وأمجدك معهم إذا مجدوك ، فأثابه الله الحلية التي  
تتخذ زينة ، وجعل بينهما برزخاً ، وتحول أحدهما ملحاً أجاجاً ، وبقى  
الآخر على حالته عذباً قرأتاً سائغاً للشاربين ! و (لَا يَبْغِيَانِ) لا يبغى أحدهما  
على صاحبه ، كما أسلفنا ، فيغلبه ، وقيل : (لَا يَبْغِيَانِ) على الناس  
فيفرقانهم إذ جعل بينهما وبين الناس يبساً ، وقيل : المعنى (لَا يَبْغِيَانِ)  
أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) لولا البرزخ  
الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا ، وهو تكلف في التقدير . وقيل البحران  
طريق الخير وطريق الشر ، والبرزخ الذي بينهما التوفيق ، وقيل هما العقل  
والهوى والبرزخ بينهما لطف الله ، وقيل هما الطاعة والمعصية والبرزخ العصمة ،

و (لَا يَبْغِيَانِ) في كل ذلك لا يؤثر أحد البحرين في الآخر . وقيل هما الدنيا والآخرة والبرزخ القبر من وقت الموت إلى القيامة . وقيل الحياة والموت والبرزخ الأجل . وقيل الحجة والشبهة والبرزخ النظر الدقيق . وكل ذلك تجاوز بعيد للظاهر الواضح الذي تكاد دلالاته تُلْمَسُ لَمَساً ، والذي يجري مع آلاء السورة السابقة واللاحقة . ولا ريب في أن نعمتي البحار والأنهار من أعظم النعم التي أضفاها الله على الإنسان ، أما الأنهار ففيها الماء العذب كيمياء الحياة ، وأما البحار ففيها الأسماك التي أُحِلَّ للناس صيدها وطعامها ، وفيها الحلّ وغير ذلك من منافع ذكرها القرآن ، وحرى بالثقلين أن يشكروا الله على النعمتين وأن يعبداه حق عبادته .

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

اللُّوْلُؤُ الدُّرُّ، والمَرْجَانُ الخرز الأحمر . ويكثر اللؤلؤ في الخليج العربي وبحر الهند . وينمو المرجان في البحر كالشجر ، ومنه أبيض وأحمر وأسود ، وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره . وذكرنا آنفاً أن المراد بالبحرين البحر الملح والبحر العذب ، ومعروف أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح . وإذن فنسبة خروجهما إلى البحرين مع أنهما لا يخرجان من البحر العذب إنما هي على سبيل التغليب كما يقال يخرج الولد من الذكر والأنثى وإنما تلده الأنثى ، وكما قال تعالى في سورة الأنعام : ( يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ) ، والرسل من الإنس دون الجن كما أسلفنا . وقيل إن اللؤلؤ والمرجان إنما يكثران في ملتقى الأنهار بالبحار على نحو ما هو معروف عن الخليج العربي وكثرة اللؤلؤ فيه لانتقاء مياه الفرات ودجلة بمائه

الملح الأجاج . وقيل معنى خروج اللؤلؤ والمرجان حدوשהما من تلاقى المائتين .  
والأولى أن نأخذ بفكرة التغليب السابقة وأن يَظَلُّ للبحرين معناهما العام .  
والله جلَّ وعزَّ يريد بذكره اللؤلؤ والمرجان اتخاذ الإنسان لهما حلية وزينة ، وهو  
ما عبَّر عنه في موضع آخر من الذكر الحكيم بقوله في سورة فاطر: (وَمَا يَسْتَوِي  
الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلُّ تَاكُلُونَ  
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) . واللَّحْمُ الطَّرِيُّ السمك ، والحلِيةُ  
اللؤلؤُ والمرجان عبَّرَ عنهما بمراد الإنسان ومقصده من اتخاذهما . وبذلك  
يقرن الله إلى نعمه الروحية والمادية والكونية التي أسبغها على الإنسان نعمة  
تمكينه من تزيينه وخلق حاسة الزينة والجمال عنده . وقد كرر في القرآن  
كثيراً أنه زينَ له السماء والأرض ليمتلئ نظره بآيات الجمال في كل ما حوله  
من مشاهد ومناظر . فقال في سورة الحجر : (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا  
وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) وقال في سورة فصلت : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)  
يريد الكواكب والنجوم . أما الأرض فجعل كل ما عليها جميلاً : الحيوانات  
بأنعامها وغيرها كما قال في سورة يونس : (أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنَتْ) .  
وتلك البحار تمدها بزینتها وحليها من اللؤلؤ والمرجان . ولقد أمد الله الإنسان بزينة  
ما مثلها زينة في خلقه ، وذكر ذلك فقال في سورة غافر : (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ) . وعلى هذا النحو كلما مدَّ الإنسان بصره إلى جنسه وإلى  
ما حوله في الأرض والسماء وجد ما يمتع نظره وقلبه وما يغدئ روحه وعقله من روائع  
الجمال والحسن والزينة الباهرة . وكأئنا الجمال والزينة والحسن جواهر قائمة  
في تركيب كل شيء في الكون ، ومنها ما لا يحتاج إلى يد الإنسان، ومنها ما يحتاج  
إليها كالحلئ وكثير من أنواع الزينة والرياش التي يتخذها في حياته مترقياً بها مع

أطواره الحضارية. ومتاعه بالجمال الصناعي إنما غرَّسه رَبُّه فيه بما وضعه تحت بصره من صور الجمال الكوني، فهي التي نمت فيه حاسة الجمال، وهي التي جعلته ينعم بمناظره ومشاهده في اللؤلؤ والمرجان وغير اللؤلؤ والمرجان، ويجد لذلك في نفسه بهجة وفرحة ومسرة، كما يجد لذة ومتاعاً وغذاء لبصره وفؤاده، وإنها لنعمة من أكبر النعم التي يجدر بالثقلين أن يقدموا من أجلها لربهما شكراً صافياً مخلصاً غير كافرين أنعمه: نعمة الجمال والشعور والإحساس به في كل جميل وكل حُسن وكل حلية وكل زينة.

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الجواري جمع جارية وهي السفينة، وهي الفُلُكُ. وكلها جاءت في القرآن مرارا. وأكثرها دورانا في الفُلُكُ ومفرده وجمعه ومذكره ومؤنثه بلفظ واحد، وقيل واحده فَلَكٌ مثل أسد وأسد. والمنشآت بفتح الشين المصنوعات للجري والسير من الإنشاء أي الصُّنْعُ والخلْق. وقيل: المنشآت المرفوعات الشُّرْعُ من أنشأه بمعنى رفعه. والشُّرْعُ بضم الشين جمع شراع وهو قلع السفينة بكسر القاف. وقرئ المنشآت بكسر الشين أي الرافعات الشُّرْعُ أو اللاتي ينشئن الأمواج بمعنى يُجْرِينَهَا. والأعلام جمع عَلَمٍ وهو الجبل الضخم أو الشاهق ضخامة وارتفاعاً. وقد ذكر الله في القرآن نعمة الفُلُكُ والجواري والسفن موضِّحاً لها ومبيناً أفضاله وآلاءه فيها، تارة يذكر أنه سخرها للإنسان كما في سورة إبراهيم: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) وتسخيرها أن تجرى على وجهه مع ثقلها. وتارة يذكر أنه سخر البحر

لتجرى فيه كما في سورة الجاثية : (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَتَجْرَىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ) . وتسخير البحر تذليله لتطفو عليه السفن وليحملها إلى أقاصى الأرض . وعمَّ في المنافع منه إذ قال : (وَلِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ) ، وفضله على الإنسان فيه وفير . إذ سخره له كي يحقن مآرب كثيرة ، منها استخراج الأسماك أو الصيد . ومنها استخراج اللآلى والمرجان المذكور في الآية السالفة أو الغوص . ومنها التجارة وكسب الأرباح . ومنها الارتحال إلى بلد ناءً بحثاً عن وجوه الرزق . ومنها ركوبه للحج أو للجهاد . وقد شبه الله السفن في البحر بالجبال في البر للدلالة على أنها مهما استطلت وعظمت حتى صارت كالجبال الضخمة الشاهقة فإن البحر يحملها بقدرة الله وتيسيره ، نعمة كبيرة على الإنسان . وقد صور تنمة هذه النعمة في سورة الشورى إذ قال : ( وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنَّ يَشَأُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ) ومعنى (رواكِد) ثوابت لا تجرى في البحر ومعنى (يُوبِقْهُنَّ) يهلكهن . والله ، عَظَّمَ فضله ، يقول إنه إن يشأ ينزل بالفلك الجوارى إحدى كارتتين : إما كارثة سكون الريح فتركد على متن البحر ولا تستطيع الحركة والانطلاق ، وإما كارثة العواصف المدمرة فتهلك غرقاً بسبب ما اقتَرَفَ مَنْ فيها من الذنوب ، ومع ذنوبهم وسيئاتهم يذكر العفو ، بل إنه يذكر الكارتتين لبيان أنه يَفْضَلُ على مَنْ يركبونها بدفعهما عنهم ، فهو يَصْرِفُ عنها الكوارث ، ويدفعها في البحر برفق ، كما قال في سورة الإسراء : ( رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ) . ولعظم هذه النعمة وجلالها بما ذلَّل فيها من

البحر ومياهه والرياح اللينة التي تجرى رُخاءً أدخلها في أقسامه التي أقسم فيها ببعض مخلوقاته دلالة على أنها من عظيم آياته إذ قال : (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) و (الذَّارِيَاتِ) الرياح تذرُو التراب وغيره أي تدفعه دفعا . و (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) أي حِمْلًا عظيمًا هي السحبُ الحاملة للمطر التي تدفعها الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، فتحميها الأرض بعد موتها . و (الجاريات) السفن تسوقها الرياح (يسرًا) في سهولة بكل ما تحمل من متاجر ومن مسافرين بالغة بهم غاياتهم ، آية كبرى من آيات الله ينبغي أن يقابلها الإنسان بالشكر له على ما أولاه . وذكر هنا بعض الأسلاف أن الآيات القريبة السالفة في السورة شملت حتى هذه الآية العناصر الأساسية الأربعة ، وهي التراب والنار والماء والهواء ، ففي قوله تعالى : (خلق الإنسان من صلصالٍ) إشارة إلى أنه مخلوق من تراب عجيب الشأن . وقوله : (وخلق الجن من نارٍ صريحٌ في ذكر النار وأنها أصلٌ لمخلوق غيبيٍّ مستور عن بني الإنسان . وقوله : (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) إشارة إلى أن الماء أصل لكل شيء حتى عظيم القدر والقيمة . وقوله : (وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام) إشارة إلى الهواء وأن له تأثيرًا قويًا في جريان السفن الثقال كأنها الأعلام أو الجبال .

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ \* وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ  
وَالْإِكْرَامِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

كل من على الأرض فانٍ هالك ، وهو هلاك وفناء مستقر في طبيعة الموجودات الممكنة ، ونسبة الوجود إليها كنسبة العدم لا بد من سبب يرجحه وهو الله علة

الوجود ومنشئه . ويمتنع أن يكون وجود الله ممكناً ، لأن الممكن لا يقوم الوجود بذاته من ذاته ، وإنما يقوم به من علّةٍ خارجة عنه ، مما يعيّن أن يكون وجود الممكن إنساناً وغير إنسان مستفاداً من موجود غير ممكن الوجود بل واجب الوجود ، ومنه تستفيد الممكنات جميعاً وجودها ، فهو موجودها ومنشئها ، وهو الذى يمدُّ لها فى الوجود والبقاء فيحفظهما عليها حسب مشيئته ، حتى يحسِرهما عنها ، فتسقط فى الفناء والهلاك . ومعنى ذلك أن وجود الإنسان عارض ، فقد وُجِدَ أو بعبارة أخرى حَدَثَ ، بعد أن كان معدوماً ، وحدوثه أو وجوده إلى حينٍ ، حسب ما كتب له الله من حياة وبقاء . وهلاكه وفناؤه لا يعينان العدم المطلق ، فإنه يموت ثم يحيا بعد موته . وإذا قرئنا ما صورّه الله من ترقّيه بوجوده فى حياته الدنيا إلى ما صورّه من فئانه وإقامته فى البرزخِ أو القبرِ ، ويعثه ، ثم حياته فى الدار الآخرة ، وجدنا تشابهاً فى الصورتين ، فقد خلق الله الإنسان الأول بعد عدم من تراب ثم تحول به صلصالاً ثم (سَوَاءٌ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) وأخذ يتناول حياته الدنيا . وكذلك أبنائه أحدثهم بعد عدم من نطفة ، تدرّج بها حتى تحولت جنيناً وتحول الجنين طفلاً ، ونما الأطفال ، وكفّلت لهم الأسباب الكونية والدينيّة الروحية ، فاهتدى منهم من اهتدى ، وضلَّ من ضلَّ ، وسعدَ من سعدَ ، وشقى من كُتِبَ عليه الشقاء . وهذا التدرج الدنيوى للإنسان من العدم إلى حجاب التراب والطين والصلصال ونفخ الروح فى آدم وحجاب النطفة والتكوّن فى أثناء الحمل حتى الولادة فى أبنائه ثم الحياة الدنيوية ، يقابله تدرج الإنسان الأخرى من فئانه بعد وجوده إلى حجاب القبر أو برزخه ، وكأنّه يعود إلى التراب الذى نشأ منه أبوه أو قل الذى تكوّنت فيه نشأته الأولى . وقد أشار القرآن إلى

هذه النشأة مراراً يمثل قوله في سورة نوح: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) وقوله في سورة هود: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) فقد نشأ الإنسان من الأرض وممرت به أطوار حتى هلك . وعاد إليها بعد هلاكه ليبدأ نشأته الثانية الخالدة . وعلى نحو ما تغيب عن الإنسان حياته في حجابه الدنيوي تغيب عنه أيضاً حياته في حجابه الآخروي . فلا يدري من أمرها شيئاً طوال حياته الدنيوية ، وقد ورد في القرآن ما يشهد بأن للإنسان حياة في هذا الحجاب إذ جاء في سورة آل عمران عن شهداء يوم أُحُد: ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وجاء في سورة غافر عن آل فرعون: (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وواضح أن الآية تدل على عذابهم في القبر حتى قيام الساعة . وفي صحيح البخارى : « إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وما يزال الإنسان في هذا الحجاب حتى يكون البعث . وزعم بعض متفلسفة الإسلام ومن جازاهم . أن البعث بالأرواح لا بالأجساد ، لأن الأجساد تتحلل ، ولو أنهم أنعموا النظر في الذكر الحكيم لوجدوه يؤكد مراراً وتكراراً أنه سيبعث الناس بأجساد حقيقية ، يقول في سورة يس: ( وَصَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ويردد الله أنه كما يحيى الأرض بعد موتها بالغيث والنبات سيحيى الناس ، وأنه كما بدأهم في نشأتهم الأولى فَخَلَقَ آدَمَ أباهم من التراب سيخلقهم في الآخرة مثله من التراب .

ويردُّ أطوارَ خَلْقِهِ الإنسانَ في بطنِ أمه ، إذ جعله عَلَقَةً ثم حَوْلَ العَلَقَةِ مُضْغَةً ، ثم حولَ المُضْغَةِ عِظَاماً وَلَحْماً ثم سَوَاهُ وَأَنْشَأَهُ خَلْقاً آخَرَ ، كذلك سَيَصْنَعُ بالناسِ في النشأةِ الثانيةِ ، إذ سَيُنْبِتُهُم من الترابِ دونَ حاجةٍ إلى رَحْمٍ وَأَمْهَاتٍ وَأَبَاءٍ ودونَ حاجةٍ إلى أَغْذِيَةٍ وَأَطْعَمَةٍ . نشأةٌ جديدةٌ لا تماثلُ النشأةَ الأولى في طبيعتها ، فتلك النشأةُ فاسدةٌ قابلةٌ للتحللِ والفناءِ ، أما نشأةُ الحياةِ الآخرةِ فنشأةٌ دائمةٌ خللدةٌ لا يلحقها الفسادُ ، وفي ذلك يقولُ اللهُ في سورةِ الواقعةِ : (وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَأَ تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) . وإنما أَطْلَنَّا في بيانِ هذا كله لنشرحَ الفناءَ في الآيَةِ ، وأنه فناءٌ يعقبه استشرافُ الإنسانِ في القبرِ لنعيمه وعذابه حسبَ عمله . وإنما كانَ الفناءُ نعمةً ، لأنَّه يزيلُ السورَ القائمِ بينَ الإنسانِ وحِياتِهِ الأخرى الأبديةِ وما يَنْعَمُ به فيها من رضوانِ اللهِ السَّرْمَدِيِّ ، وأيضاً لأنَّه يتخلصُ من الحياةِ الدنيويةِ وآلامها ويرحلُ عنها إلى حياةٍ روحيةٍ رفيعةٍ . واختلفَ المفسرونَ في كلمةِ (وَجْهٍ) المذكورةِ في الآيةِ الثانيةِ والمضافةِ إلى الذاتِ العليةِ ، فقيلَ الوجهُ المقصدُ أي يَبْقَى ما يُقْصَدُ به رَبُّكَ من الأعمالِ الصالحةِ ، كما قالَ الشاعرُ :

أَسْتَغْفِرُ اللهُ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

ويتصلُ بهذا المعنى قولُ من قال إنَّ الوجهَ هو الجهةُ التي أمرنا اللهُ أنْ نتقربَ بها إليه ، وهى العملُ الصالحُ ، واللهُ يبقيه للعبدِ حتى يجزيه به ، ولذلك وُصِفَ بالبقاءِ ، أو لأنَّه يقبُولُ اللهُ صارَ باقياً غيرَ فانٍ لقيامِ الجزاءِ عليه مقامه وهو باقٍ . وقيلَ الوجهُ هو وجهُ الموجوداتِ الذي يلي جهةَ اللهِ ، بمعنى أنَّ الموجوداتِ كلها فانيةٌ إلا باعتبارِ الوجهِ الذي يتولاهُ الحقُّ جَلَّ وعزَّ ، والمرادُ شؤنه وفيوضه على الكائناتِ فإنها باقيةٌ متصلةٌ . وكانَ هذا القولُ ينظرُ إلى

رأى الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود ذاهبين إلى أنه ليس في الوجود ذوات مختلفة ، بعضها واجب/الوجود ، وبعضها ممكن يعرض له الوجود والعدم ، إنما الوجود كله ذات واحدة لها شئون متعددة وتجليات متجددة . وقيل الوجه رضا الله وثوابه ، كما جاء في سورة الإنسان : ( إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ) أى لرضاه وطلب ثوابه وكما جاء في الحديث : « من بنى مسجداً يستغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة » . وفي كل هذه المعاني لكلمة (وجه) بُعد عن سياقها في الآية مع ما قبلها ، وطبعاً لا يراد بها الوجه الحقيقي ، لما يقتضى ذلك من التشبيه على الله وأنه يماثل المخلوقات ، وإنما هي مجاز عن ذاته العلية ، يقول الزمخشري : « الوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون أين وجه محمدي كريم ينقذني من الهوان ؟ » يقصدون إنساناً ، ويشهد لهذا المعنى في الآية وأن الوجه هو ذات الله القدسية ظاهر قوله في سورة البقرة : ( وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ) ، وقوله في سورة القصص : ( لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ) . وهو الواضح المراد من هذه الآيات جميعاً ، وإن حاول بعض المفسرين صرف الكلمة فيها إلى المعاني التي أسلفنا . و (الجلال) العظمة والمهابة ، و (الإكرام) الفضل التام واللطف ، وفي الآية ثلاثة أقوال ، أحدها أنه أهل أن يُجِلَّهُ الناس وأن يكرموه عن تشبيهه بخلقه ، وأن يثبتوا له ما يليق بشأنه من التعظيم والإكرام ، والثاني أنه يُجِلُّ ويكرم أهل طاعته ، والثالث أنه أهل في نفسه للإجلال والإكرام . ولا ريب في أن الإجلال فوق الحمد . وَيُسَنُّ في ركوع الصلاة أن يقول المصلّي سبحان ربّي العظيم ، وفي القيام يحمده ويثني عليه ، فهو يُمَجِّدُه ثم يَحْمَدُه ، أو هو يَجِلُّه ويعظّمه ثم يكرمه

وبحمده . ويمكن أن يقال إن الإجلال تمجيد والإكرام حب وإنعام . وقيل إن الجلال إشارة إلى كل صفة هي من باب النفي كقول القائل : الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولذلك يقال جَلَّ أَنْ يَكُونَ جَسَماً أَوْ جَوْهَراً أَوْ عَرْضاً ، والإكرام إشارة إلى كل صفة هي من باب الإثبات مثل الله قادرٌ عالمٌ حَيٌّ قَيُّومٌ . وهذا القول غير دقيق لأن نفي الصفة يتضمن إثبات مقابله ، أو بعبارة أخرى يتضمن معنى ثبوتياً ، كما أن إثباتها يتضمن معنى سلبياً فمثلاً قول الله في سورة البقرة : ( وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ) يتضمن كمال علمه ، وقوله : ( لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ) يتضمن كمال حياته ووجوده ، وقولنا إنه قادر يتضمن أنه غير عاجز ، وقولنا إنه عادل يتضمن أنه غير ظالم . وفي قرآنة ( وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ) على أن ( ذى ) تابعة لكلمة ( ربك ) لا لكلمة ( وجه ) . وفي الحديث : « أَلِظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » . والإلظاظ . لزوم الشيء والمثابرة عليه والإلحاح ، أى الزموا ذلك في الدعاء ، ولذلك كان يتردد فيه على لسان الداعين : اللهم ياذا الجلال والإكرام . وفي ذكر هاتين الصفتين بعد فناء الخلق إشارة إلى أنه جَلَّ وَعَزَّ صاحبُ العظمة والسلطان وصاحب الإفضال والإنعام والإحسان ، فبعد هذا الفناء والعدم يتيح للإنسان حياة جديدة ينشئه فيها نشأةً أخرى بعظيم قدرته وإحسانه ورحمته ، نشأة لا يلبسها فساد الوجود وانحلاله على نحو ما كان الأمر في النشأة الأولى بل يلبسها الخلود والبقاء إلى أبد الآبدين ، وكأنه يقول لعباده إنني باقٍ لكم ، باقٍ بعظمتي وفضلي فلا تَغْتَمُوا ، فإن ما أفضتُ عليكم في دنياكم من آثار جلالى وحُببى وإحسانى سيبعثكم في أخراكم . وبذلك نفهم تقريره الثقلين على آلائه إزاء الفناء

وما يلحقهما من العدم ، فإن العدم والفناء سوران فاصلان بين الحياة الدنيوية الزائلة والحياة الأخروية الخالدة وفي انمحاءهما وزوالهما نعمة ظاهرة ، تتبعها نعمة الجزاء والإثابة بالنعمة السرمدية .

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ \*  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

كلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقَاءِهِمْ وَكُلُّ مَا يَتَّصِلُ بِالْبِقَاءِ مِنْ حَاجَاتٍ وَكَمَالَاتٍ ، فَبِقَاءِهِمْ مَوْصُولٌ بِالْعَنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَهَمْ لِذَلِكَ يَتَّجِهُونَ إِلَى اللَّهِ دَائِمًا بِالسُّؤَالِ ، إِمَّا بِلِسَانِ الْمَقَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْحَالِ . وَسُؤَالِهِمْ إِمَّا سُؤَالٌ يَتَّصِلُ بِالْمَعْرِفَةِ وَمَا يُطَلَّبُ لِلْسَائِلِ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى صَلَاحِهِ وَفَسَادِهِ لِيَتَّبِعَ سَبِيلَ الرِّشَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : ( فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ) ، وَإِمَّا سُؤَالٌ يَتَّصِلُ بِالْعَطَاءِ وَالْهَبَةِ وَالطَّلْبِ وَعَرَضِ الْحَاجَةِ . وَالنُّوعَانِ مِنَ السُّؤَالِ يَتَدَاخِلَانِ ، لِأَنَّ مَرَجِعَهُمَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى اللَّهِ مَا فِيهِ صَلَاحٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَ ( مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ) الْمَلَائِكَةُ ، وَقِيلَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ الرَّحْمَةَ وَقِيلَ يَسْأَلُونَهُ الْقُوَّةَ عَلَى الْعِبَادَةِ . وَقِيلَ يَسْأَلُونَهُ الْمَغْفِرَةَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ يَسْأَلُونَهُ لِهَمِّ الْمَغْفِرَةِ وَالرِّزْقِ . وَكَرَّرَ الْقُرْآنُ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْتَغْفِرُونَ لِلنَّاسِ مُؤْمِنِينَ وَمُشْرِكِينَ دُونَ تَفْرِيقِ طَالِبِينَ إِلَى اللَّهِ غُفْرَانَ ذُنُوبِهِمْ وَالْعَفْوَ عَنْ آثَامِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ الشُّورَى : ( وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ) مُلْتَمِسِينَ مِنْهُ أَنْ يَصُونَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ . وَيُنصُّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنْ اسْتَغْفَرَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمُ ، إِذْ لَا يَكْتَفُونَ فِيهِ بِطَلْبِ الْغُفْرَانِ بَلْ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ لَهُمُ الرِّضْوَانُ وَفِرَادِيْسُ الْجَنَّةِ

على نحو ما نقرأ في حورة غافر: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وهو سؤال كريم من حملة العرش الإلهي ، من الملائكة المقرَّبين وَمَنْ حولهم من أمثالهم . ومن الممكن أن يكون المراد بحملة العرش الذين يقومون على تنفيذ المشيئة الربانية في الوجود كله من الملائكة وغيرهم . وتمثلهم الآيات الكريمة يطلبون الغفران للمؤمنين وأن يصونهم الله عن أن تمسهم النار ، بل يدخلهم فردوسه الذي عد لهم به وأن يجمعهم فيه بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم ، حتى تقرأ أعينهم بهم جميعاً ، وهم يوالون هذا الدعاء وأن يحفظ المؤمنين من السيئات ، حتى يُكْتَبَ لهم الفوز العظيم . ويتلطف الله ، فيقرن ذاته العلية إلى الملائكة في الاستغفار والدعاء رحمة وحنواً بالناس وخاصة بالمؤمنين ، إذ يقول في سورة الأحزاب: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) . وإذا كان أكثر ما ينصبُّ عليه سؤال الملائكة لربهم هو طلب المغفرة لأهل الأرض فإن أهل الأرض يشركونهم في هذا السؤال وفي أسئلة أخرى كثيرة يسألونها ربهم ، من ذلك سؤال الاسترشاد وسؤال التوفيق وسؤال العطاء وسؤال العون والنصرة وسؤال الشفاء والنجاة إلى غير ذلك من أسئلة تتصل بدنياهم ودينهم . ويتلطف جلَّ شأنه فيطلب إلى الإنسان أن يسأله قائلاً في سورة النساء : (وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) وبحق

قال سفيان بن عيينة أحد المحدثين الأولين : « لم يأمر بالسؤال إلا ليعطى » . وفي كل جانب من جوانب الذكر الحكيم نحس كأن خزائن السموات والأرض قد فتحت أبوابها على مصاريحها كي يسأل الإنسان ربه ويعطيه من هباته ، يقول جل ذكره في سورة البقرة : ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ) وفي الحديث : « إن لربكم في بقية أيام دهركم نَفحاتٍ فتعرضوا له ، لعل دعوة أن توافق رحمةً فيسعد بها صاحبها سعادةً لا يخسر بعدها أبدًا » ، وقال سفيان بن عيينة : « لا يمنع أحدًا من السؤال أو الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قد أجاب دعاء شَرِّ الخلق إبليس ( قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ) » . وقيل لإبراهيم بن أدهم أحد الزهاد السابقين : « ما بالنا نسأل الله فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأفاض الله عليكم نعمه فلم تؤدوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس » .

وتصور الآية كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن متجهين إلى الله يضرعون إليه بالدعاء أن يستجيب لهم وأن يحقق ما يأملون ويرتجون من مغفرة ، أو من عمل صالح ، أو من عمل سيئ فيهم أو في غيرهم يبتغون الخلوص منه ، أو من استقامة يبتغون دوامها أو حصولها ، أو من قرب من الله أو منزلة عنده وطاعة وثواب . وطبيعي أن تتعدد الأسئلة والأدعية حسب المقامات والمواقف ، فالخائف يسأل النجاة ، والراجي يسأل الثواب ،

والجاهل يسأل العلم ، والعالم يسأل الزيادة في علمه ، والمريض يسأل الشفاء ، والثائب يسأل النجاة ، والعاصي يسأل العفو والغفران . و ( كَلَّ يَوْمٌ هُوَ فِي شَأْنٍ ) من الشئون . وتشمل الشئون كل ما يسأله أهل السموات والأرض . إذ لا يزال الله ينشئ أموراً ويجدد أحوالاً ، وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا آيَةَ عَلَى أَصْحَابِهِ . فَسَأَلَهُ أَحَدُهُمْ : مَا ذَلِكَ الشَّأْنُ ؟ فَقَالَ : « مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً وَيَغْرِجَ كَرَباً وَيَرْفَعَ قَوْماً وَيَضَعَ آخَرِينَ » ، وفي رواية أَنَّهُ قَالَ : « يَغْفِرُ ذَنْباً وَيَكْشِفُ كَرْباً وَيَجِيبُ دَاعِياً » . وقيل : شَأْنُهُ أَنْ يَحْيِيَ وَيَمِيتَ وَيَعَزَّ وَيَذِلَّ وَيَرْزُقَ وَيَمْنَعُ . وقيل شَأْنُهُ أَنْ يُولِجَ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجَ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَيَخْرِجَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ . وَيَخْرِجَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيَشْفِي سَقِيماً ، وَيَسْقِمَ سَلِيماً ، وَيَبْتَلِيَ مَعَافَى ، وَيَعَافَى مَبْتَلَى ، وَيَعَزِّزُ ذَلِيلاً وَيَذِلُّ عَزِيزاً . وَيَفْقِرَ غَنِيّاً ، وَيُغْنِي فَقِيْرًا ، ونحو ذلك حسب ما تقتضيه إرادته الربانية القائمة على الحكيم والمصالح الجليلة . وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : الدهر عند الله تعالى يومان أحدهما اليوم الذي هو مدة عمر الدنيا فشأن الله فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء والابتلاء والاختبار والإعطاء والمنع ، وثاني اليومين اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة وشأنه فيه - سبحانه - الجزاء والحساب والثواب والعقاب . والظاهر أن المراد في الآية الإخبار عن شأنه جل وعز في أيام الدنيا . والشأن في اللغة الخطب العظيم . وتعرض بعض القدماء لأحد العلماء يسأله عن هذه الآية ( كَلَّ يَوْمٌ هُوَ فِي شَأْنٍ ) وما جاء في الحديث من أن القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة وأنه لا تغيير لأمرٍ ولا تبديل . فأجابه على الفور بأنها شئون يبيدها الله لا يبتدئها . ويقال إنه أجاب إجابة ثانية . فقال إن المراد بالشأن سَوِّقُ المقادير إلى

مواقبتها . وواضح أن الآية تصوّر غِنَى الله عما سواه وأن كل الخلق في حاجة إليه ، وأنهم يسألونه صباح مساء ، وهو يلبي دعاءهم رحمة بهم وإنعاماً . ولا ريب في أن هذه الأبواب المفتوحة التي لا تُغلق أمام أهل السموات والأرض : أبوابَ الرحمة والبر والحنان والرأفة واللطف وإجابة الأسئلة وتلبية الأدعية حريةً بأن تدفعهم جميعاً إلى شكر الرحمن الرحيم على آلائه ونعمه ، وقد بلغ من رحمته بعباده أن قال لهم في سورة غافر : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فندبهم من فضله وعظيم كرمه إلى دعائه ، ووعدهم الاستجابة لهم ، مِنَّة عظيمة من مننه .

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الثقلان الإنس والجن كما مر بنا ، وفراغ الله لهما إشارة منه جلَّ جلاله إلى أن هذه النشأة الأولى ستنتهى وستتبعها نشأة ثانية من البعث والحساب والجزاء . ويكرر القرآن أنه لا بد من البعث ، وإلا ففيم أعطى الله الإنسان القدرة والعقل والاختيار بين طريقى الخير والشر؟ وفيم أنزل على رسله الشرائع وكلّفه تعاليمها؟ وفيم يكون الفرق بين من صدع بتعاليمه ومن نكل عنها؟ وفى ذلك يقول عزّ شأنه في سورة طه : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) ويقول في سورة ص : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ). فلا بد من القيامة والبعث حتى يجازى الناس على ما يعملون ويثابوا أو يعاقبوا على ما يفعلون . وقد ذُكر يوم البعث في القرآن بأسماء كثيرة ، منها يوم القيامة ، والساعة ، ويوم الدين ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، ويوم الفصل ، ويوم

التَّنَادِ ، ويوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . وقيل الصور النفير أو البوق . وقيل الصور جمع صورة أى اليوم الذى يَنْفَخُ فِيهِ اللهُ فِي صُورِ النَّاسِ جَمِيعاً ، فَيُبْعَثُونَ مِنْ مَرْقَدِهِمْ وَيَحْيُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ . كما قال اللهُ فِي نَشْأَةِ آدَمَ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ : ( ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ) . ومثل الصور فِي الآيَةِ النَّاقُورِ فِي آيَةِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ : ( فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ) فقد قيل النَّاقُورِ البوق أو النفير ، وقيل بل الصُّور جمع صورة كما مر فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ السَّابِقَةِ ، ومعنى النقر النفخ ، والآيَةُ بِذَلِكَ تَرَادُفُ سَابِقَتِهَا فِي الْمَعْنَى وَالذَّلَالَةَ . ولعل ذلك كله تمثيل ليوم البعث والخروج من القبور . ومن هذ التمثيل تسمية يوم القيامة بِأَنَّهُ يَوْمُ التَّنَادِ وَ ( يَوْمٌ يَدْعُ الدَّاعِ ) كما جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ ، أى أَنَّهُ يَوْمُ الْفَرْعِ وَيَوْمُ الصِّيَاحِ وَيَوْمُ الدَّعَاءِ وَالنِّدَاءِ ، ينادى النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْفَرْعِ . ويصور القرآن النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ أَجْدَادِهِمْ وَقُبُورِهِمْ يَوْمَ الْبَعْثِ عَلَى نَحْوِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : ( كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ) بَعْضُهُمْ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَيَكُونُونَ حِينئِذٍ عَلَى نَحْوِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَارِعَةِ : ( كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ) كلُّ مِنْهُم يَذْهَبُ إِلَى جِهَةٍ مُخَالَفَةً لِجِهَةِ صَاحِبِهِ كَالْفَرَاشِ فَإِنَّهُ إِذَا طَارَ فِي الْهَوَاءِ لَا يَتَّجِهُ وَجِهَةً وَاحِدَةً ، بل تَتَفَرَّقُ بِهِ الْوُجُهَاتُ وَتَخْتَلِفُ ، فَهَمَّ مِنْ شِدَّةِ الْهَلَعِ يَتَفَرَّقُونَ عَلَى غَيْرِ هَدًى فِي اتِّجَاهَاتٍ شَتًى لَا يَلْوُونَ . وهذا البعث وما يتلوه من الجزاء والثواب والعقاب نعم وآلاءُ اللهُ عَلَى الثَّقَلَيْنِ ، فَإِنَّهُ سَيَنْشِئُهُمَا نَشْأَةً ثَانِيَةً يَفْرَغُ لَهَا وَيَخْلَصُ . والتعبير بالفراغ للذلالة عَلَى الْإِهْتِمَامِ ، لَا أَنْ ذَلِكَ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ ، حَتَّى تَأْخُذَ تِلْكَ النِّشْأَةَ صُورَتَهَا الْإِلَهِيَّةَ الْعُلْيَا .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ \* فَبِأَيِّ آيَاءِ  
رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ) :

النفاذ الخروج والخلوص . والسلطان القوة والغلبة ، وقيل الحجة والبرهان .  
والآية تصوّر بالمعنى الأول أن الإنس والجن جميعاً في قبضة الله كما قال  
في سورة الزمر : (وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) فهو القادر القهار المالك لكل شيء ،  
وليس لأحد من دونه أى ملك أو سلطان ، فكل شيء بيمينه وكل جنى  
وإنسى في قبضة قدرته لا يستطيع الفرار من عقابه ولا الهروب من حكمه  
وقضائه كما قال عز سلطانه في سورة العنكبوت : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ  
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أى  
أنهم لا يستطيعون أن يفوتوه ولا أن يفروا من سلطانه المبسوط على السموات  
والأرض لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وبالمثل لا يستطيعون الفرار من قدره  
الجارى . وعلى تفسير السلطان بالحجة والبرهان قال ابن عباس  
إن معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات وما فى الأرض فحاولوا  
أن تعلموه ، ولن تعلموه إلا ببينة من الله وبرهان . وقد يدخل فى ذلك برهان  
العلم الذى يمكن الله الإنسان منه فيصل إلى القمر أو إلى غيره من الكواكب .  
وعن عبد الله بن المبارك أحد نساك القرن الثانى الهجرى أنه إذا كان يوم  
القيامة أمر الله الدنيا فتشقت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى  
يأمرهم الرب فينزلوا إلى الأرض فيحيطوا بها وبمن فيها . ثم يأمر الله السماء

التي تليها كذلك فينزل ملائكتها ، فيكونون صفّاً من خلف ذلك الصفِّ ، ثم السماء الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة ، فينزل الملك الأعلى (يريد الله) في بهائه ، وتفتح أبواب جهنم فيسمع الجن والإنس زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قطراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة . وهذا هو تفسير الآية في رأى ابن المبارك وهو ليس تفسيراً بل موعظة . وقيل إن الملائكة تنزل يوم القيامة فتحيط. بجميع الخلائق وتحقق بهم فإذا رأهم الجن والإنس حاولوا الهروب ، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ، وهو معنى قوله تعالى : (لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) فهم لا يخرجون إلا بسلطانه وقدرته ولن يخرجوا . وعلى هذا الوجه من التفسير تصور الآية قدرة الله في يوم الحشر التي يسيطر بها على السموات والأرض وأن أحداً من الجن والإنس لا يستطيع الخلوص من قدرته ، ولا مما سيوقع عليه من العقاب والجزاء ، فالجميع مرجعهم إليه . وكان الآية تعنى في شطرها الأكبر العاصين من الجن والإنس حين يحشرون ويرسم أمام أعينهم عصيانهم وعقابهم ، فإنهم يودون لو وجدوا ملجأً في أقطار السموات والأرض وجوانبهما يقرون إليه أو يتنكرون فيه ، ولكن أنى لهم والله ممسك بالوجود كله ولا مخلص من عذابه . وفي هذا المعنى نفسه يقول في سورة القيامة عن الإنسان العاصي حين يُبعثُ يوم الحساب إنه يصيح (أَيْنَ الْمَفْرُ) فقد سُدَّتْ أقطار السموات والأرض في وجهه ، ويجيبه عزَّ شأنه ناهراً له : (كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) فلا وزر، أو لا ملجأً ، من الأمر الإلهي المحكم وقضائه ، وإلى الله المستقر والمنتهى والمآب حيث لا حاكم سواه ولا مشيئة غير مشيئته ، فهو صاحب الأمر والسلطان كله ، والجن والإنس يُعرضون عليه ويحاسبون ،

وكلُّ ينال جزاء عمله ، يخذ وكلهم إلى عقولهم واختيارهم وأرسل إليهم الشرائع لتهديمهم إلى طريق الخير والفلاح وتبعدهم عن طريق الشر والإثم والضلال ، وجبَّ إليهم التقوى والطاعة وكرهه إليهم الكفر والفسوق والعصيان . ويكرر القرآن أن ( مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ) ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ) أما جزاء الحسنة فعشر أمثالها كما جاء في سورة الأنعام : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) . وهذه الآية في سورة الرحمن وسابقتها تؤكد ما قلناه في خلق إبليس والجن من أنهم مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون مثل الإنس ، فمؤمنهم كمؤمننا وعاصيهم كعاصينا . لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك . وقد يقال إن خطاب الجن والإنس في هذه الآية للتخويف والوعيد والتهديد فكيف يُعدَّ ذلك آلاءً لله ونعماً ؟ ووجه الإنعام فيه أنه إنذار بالعقاب لكي يرتدع العاصي والكافر ، وينتهى كلُّ منهما عن غيِّه ، وأيضاً فإن ذلك تربية لهما ومحاولة لإصلاحهما حتى يكفياً عن غوايتهما . فهو إصلاح وتهذيب وتوجيه إلى الطريق المستقيم . ولا بد أن نعرف أن الغرض الإلهي من الإلحاح على ذكر العقاب والثواب في القرآن لا اتباع طريق الخير طلباً للثواب والانحراف عن طريق الشر فراراً من العقاب فحسب ، بل أيضاً أن يُخلص الإنسان لربه إخلاصاً ينسيه الجزاء والثواب والعقاب ، فكل عمل صالح له يقدمه إليه ابتغاء وجهه لا خوفاً من عذاب ولا رجاءً في ثواب ، فحسبه رضا الله ولا جزاء ورائه يطلبه ولا شكوراً ، إنما يطلب القبول والقرب الروحاني . ونعماً ترديد العقاب والثواب في القرآن ، لالما قدمناه آنفاً من آلاء فحسب ، بل أيضاً ليوجد مثل هذا الإنسان المثالي الذي يتبادل المحبة مع ربه .

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَمْتَصِرَانِ \*  
فَبَيِّئِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

الآية متصلة بالآية السابقة لها بمعنى أنهم لو حاولوا الخلوص أو الخروج حينئذ من أقطار السموات والأرض لأُرْسِلَ عليهم شَوْاظٌ من نار يمنعهم من الخروج ويحول بينهم وبينه . وقيل الآية لا تتعلق بالنفوذ المذكور قبلها وإنما هي بيان لعقاب العصاة بعذاب النار . والشواظ لهب النار الذي لا دُخَانَ له أو معه . وقيل الشواظ النار والدخان معاً . والنحاس الدخان الذي لا لهب معه ، وهذا المعنى ذكره النابغة الجعدي في قوله :

يضئ كضوء سراج السليط . ط . لم يجعل الله فيه نحاساً

والسليط زيت السراج . وقيل النحاس المعدن المعروف مُدَاباً يُصَبَّ على رموس العصاة . والرأى الأول أولى . وقرئ (وَنُحَاسٌ) بالضم عطفاً على شواظ ، وهو يتلاءم مع تفسير الشواظ . بأنه لهب النار بدون دخان . وقرئ (ونحاس) بالكسر ، وهو يتلاءم مع تفسير الشواظ . بأنه اللهب والدخان جميعاً . وقيل النحاس المَهْلُ وهو الماء المغلي . وقيل النحاس الزيت المغلي . وأولى كل هذه التفسيرات تفسير النحاس بالدخان لتكرر ذكر الدخان في وصف عذاب العصاة في القرآن كما جاء في سورة الواقعة : ( وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ) (وَالسَّمُومُ حَرُّ نَارٍ تَنْفُذُ فِي مَسَامِ الْبَدَنِ وَتَحْرُقُ الْأَجْسَادَ ، وتسمى بها الريح الحارة في فلات الصحراء العربية التي تشوي الوجوه في الصيف . والحميم الماء الشديد الحرارة .

واليحُموم الدخان الغليظ الأسود سوادَ الفحم، وهو يعقد فوق العصاة ظلاً ، لا كالظل المعروف ، إذ لا يجد فيه العاصي استرواحاً ولا دفعاً من أذى الحر الشديد ، إنه ظل كربه ، بل هو ليس ظلاً أبداً ، لأنه لا بارد ولا نافع ، بل مؤذ ، يؤذى النظر ويؤذى التنفس ، بل يخنق الأنفاس خنقاً . ووَصَفَ الله هذا الدخان وظله في موضع آخر فقال في سورة المرسلات للكافرين المكذِّبين لدينه يصف لهم ما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة : ( انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرًا ) ، والظل ظل الدخان المعقود فوق نار جهنم ، وهو دخان عظيم تتشعب منه ثلاث شعب لعظمه مصعدة في أعالي النار . وهو ظل ليس ظليلاً بحيث يُظَلَّ من الحر ويروِّح عن يكتنُّ فيه ، بل يزيد في عذابه وما يقاسى من شدة النار ، إذ لا يُغْنِيه من لفتح اللهب أىَّ غناء . ويقول جَلَّ وَعَزَّ إن هذا الظل اللافتح الملتهب يقذف بشرر عظيم شديد العظم ( كَالْقَصْرِ ) واختلف المفسرون في معنى القصر ، فقيل هو البناء المشيد ، وقيل هو البيت من آدم أو جلد ، وقيل بل القَصْر جمع قَصْرَة كجمرة وجمر وهي الواحدة من الحطب الجزل . وقُرِئَتِ الكَلِمَة ( الْقَصْر ) بفتححتين جمع قَصْرَة بفتح الصاد وهي أعناق النخل والشجر أو جذورهما إذا قُطِعَت ، وقيل الْقَصْرَة الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، وكانَّ الْقَصْر قطع الخشب العظام ، وكانَّما سميت القطعة منها قَصْرَة لكونها مقصورة ومقطوعة من الخشبة الممدودة الطويلة . وهو تشبيه يراد به بيان عظم هذا الشرر . وَشُبِّهَ تشبيهاً آخر بالجِمَالَات الصُّفْر ، والجِمَالَات جمع جمال مثل رجال ورجالات ، وهو تشبيه للشرر في كثرته وتتابعه ولونه واختلاطه وحركته .

وقيل الجمالات أو الجمالة كما جاء في بعض القراءات حبال السفن وهو بعيد . وقيل الجمالات قطع النحاس الصُّفْر ، ونُسِبَ هذا القول إلى علي ابن أبي طالب . والغرض من وصف النار في الآية بأنها ذات شواظ . ومن وصفها فيها وفي الآيات السالفة بأنها ذات دخان غليظ يكتم الأنفاس وذات شرر يملأ القلوب فزعاً ورعباً أن يزدجر الكفار والعاصون ، وأن يرهبوا عقاب الله وعذابه الشديد ، فيدخلوا في طاعته وفي دينه ، إذ لا يستطيعون الوقوف في وجهه ولا الامتناع على عذابه ، ولن يستطيعوا التناصر ، إذ لا حول لهم ولا طول أمام قوته وقهره . وفي هذه التبصرة لهم آلاء ينبغي أن يؤدوا شكرها تصديقاً وإيماناً عميقاً .

(فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

معنى وردة : حمراء ، يقال غرفة وردة أي حمراء اللون . وقيل الوردة في الآية يراد بها الزهرة الحمراء المعروفة أي كوردة على التشبيه . وقيل الوردة الفرس الحمراء على التشبيه أيضاً . وقيل وردة اسم مرة من الورود مثل سجدة من السجود ، أي أن السماء انشقت وردة أو دفعة أو حركة واحدة . والدهان دهن الزيت ، أي أن السماء تصير مثل الدهن ذوباناً وسيلاناً . وقيل الدهان الجلد الأحمر الخالص . والانشقاق التصدع والانهار والذوبان . وذكر القرآن مراراً هذه الصور إيّان البعث وأنها حين تقع ويختل نظام الكون يكون ذلك إيذاناً بالنشور والنشأة الثانية . وهو تارة يتحدث عن انشقاق السماء ، وتارة يتحدث عن انفطارها دلالة على اختلال بنائها ، والله

يَصُورُهَا ذَاتِبَةً سَائِلَةً كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمِثْلَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ : ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ) وَالْمُهْلُ دُرْدَى الزَّيْتِ الْمَغْلَى وَحِثَالَتُهُ . وَهُوَ يَقَابِلُ الدَّهَانَ بِمَعْنَى دَهْنِ الزَّيْتِ فِي الْآيَةِ . وَقِيلَ الْمُهْلُ مَا ذَابَ مِنَ الْمَعَادِنِ حَتَّى سَالَ وَتَمَوَّجَ مِنْ شِدَّةِ الْغَلْيَانِ . وَيَصُورُ اللَّهُ مَا يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ وَأَفْلَاكِهَا وَكَوَاكِبِهَا بِطَلْقِ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا يُكْتَبُ إِذْ يَقُولُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : ( يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ) وَدَائِمًا يَصُورُ الْقُرْآنُ انْقِلَابًا ضَخْمًا فِي الْكَوْنِ يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي السَّمَوَاتِ ، وَكَذَلِكَ فِي الْأَرْضِ إِذْ تَرْتَجِّجُ بِكُلِّ مَنْ فِيهَا وَتَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَظِيمًا ، فَتَتَشَقَّقُ وَتَلْقَى بِكُلِّ مَا حَمَلَتْ فِي جَوْفِهَا مِنْ مَوْتَى كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّلْزَلَةِ : ( إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ) ، وَكَأَنَّ النَّاسَ دَائِمًا ثَقُلَ عَلَى الْأَرْضِ ، ثَقُلَ عَلَيْهَا وَهَمَّ أَحْيَاءُ ، وَثَقُلَ فِي جَوْفِهَا وَهَمَّ أَمْوَاتٌ . وَمَا يَزَالُ الْقُرْآنُ يَعْرُضُ عَلَيْنَا هَذَا الاضطرابَ الَّذِي سَيَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ ، وَهُوَ اضْطِرَابٌ يُعَدُّ لِلنَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ . وَهِيَ نَشْأَةٌ تَقْتَرِنُ بِسُقُوطِ أَرْكَانِ الْكَوْنِ وَتَعْطَلُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عَنْ إِرسَالِ ضَوْئِهِمَا وَانْتِشَارِ الْكَوَاكِبِ وَالنَّجُومِ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّمَالِ ، وَزَلْزَلَةُ الْأَرْضِ زَلْزَالًا شَدِيدًا بِحَيْثُ يَزُولُ كُلُّ شَاخِصٍ عَلَيْهَا مِنْ جَبَلٍ وَغَيْرِ جَبَلٍ . بَلْ إِنَّهُ لَيَصْبِحُ هَبَاءً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا . وَهُوَ عَالَمٌ جَدِيدٌ أَوْ هِيَ نَشْأَةٌ جَدِيدَةٌ . وَيَنْبَغِي أَنْ نُوْمِنَ بِكُلِّ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ فِي وَصْفِهَا دُونَ أَنْ نَتَمَادَى فِي مَحَاوَلَةِ تَبْيِينِهَا ، فَيَكْفِينَا مَا رَدَّدَهُ وَصُورَهُ الْقُرْآنُ عَنْهَا لِسَبَبِ طَبِيعِيٍّ هُوَ أَنَّهَا نَشْأَةٌ أُخْرَى غَيْرُ نَشْأَتِنَا الدُّنْيَوِيَّةِ . وَإِذَا كَانَتْ أَبْحَاثُ الذَّرَّةِ الْحَدِيثَةِ أَثْبَتَتْ أَنَّ قَنِبَلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ أَوْ عَلَى رَفْعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَوْلَى لِلَّهِ الْقَادِرِ صَانِعِ الْكَوْنِ وَمُنْشِئِهِ

النشأة الأولى أن يأتي على العالم كله في لحظة وأن يدمره تدميراً . على أن التدمير المذكور في القرآن الكريم ليس تدميراً للتدمير أو هدماً للهدم من حيث هو ، فسيعيد الله الكون في نشأة جديدة وخلق جديد . وإذا كانت إعادته الكون بعد هدمه وتدميره وسقوط نظامه الذي يتألف منه وجوده بحيث تتجمع أجزاؤه بعد تحللها وبعد ما يشيع فيها من التحولات والاستحالات التي تتيح لها وجوداً جديداً فكذلك إعادة الله الإنسان بعد فناءه ، وبعد تحلل أجزائه في التراب ، فإنه سيحدث فيه من التحولات والاستحالات ما يتيح له نشأة ثانية ، قد تكون فيها لأبداننا وأجسادنا صفات أخرى تخالف صفاتنا الدنيوية . وقد يشير إلى ذلك قوله عزَّ شأنه في سورة إبراهيم : ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ) ، والآية تنص على أن تبديلاً عظيماً سيحدث في السموات والأرض ، تتغير فيه هيئاتها وصفاتها عما كانتا عليه في الدنيا أو في النشأة الأولى . ويقول الله مراراً إن هذا التبديل العام في دائرة قدرته العلية ، فمن أنشأ الكون من العدم وبثَّ فيه الوجود وأتاح له نظامه وأسراره الكونية في النشأة الأولى لا يعجزه أن ينشئه النشأة الثانية . وإلا لأعجزته النشأة الأولى ، وما هي ذى تحت أبصارنا تدل دلالة قاطعة على قدرة منشئها الخارقة وأنه لا يعجزه أى شيء في الخلق إنشاء وابتداء وإعادة وتكراراً ، يقول جل ثناؤه في سورة يس : ( أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ) . ومعنى ذلك أن الكون كله سينشأ نشأة أخرى مع نشأة الإنسان الجديدة . وكل حديث عن هذه النشأة سواء عما سيحدث في السماء أو فيها وفي الأرض من شأنه أن يدفع الجبن والإنس إلى الشكران لا إلى الكفران والجحود والتكذيب المقيت .

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

ظاهر الآية يقتضى أن الإنس والجن من العصاة المذنبين لا يُسألون عن ذنوبهم يوم القيامة : وهو ما يعارض نصوص الذكر الحكيم معارضةً صريحة في مثل آية سورة الحجر : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ) ومثل آية سورة إبراهيم : (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وهو العرض على (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وما يتصل بهذا العرض من الحساب والسؤال وإعطاء كل ذى حق حقه بموازين عادلة ، كما يقول تعالى في سورة الأعراف : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) . وقد حاول المفسرون أن يدفعوا هذا التعارض بإجابات مختلفة ، ف قيل يوم القيامة يوم طويل فيُسأل المذنبون في بعض منه ولا يسألون في بعض آخر ، وقيل لا يُسألون إذا استقروا في النار ، وقيل لا يسأل غير المذنب من أذنب عن ذنبه . وقيل لا يسأل المذنبون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، وقيل لا يسأل مذنبو هذه الأمة وأمة الجن عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا . وقيل لا يسألون سؤال استعتاب وإنما يسألون سؤال تبريع وتوبيخ ، وقيل لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقرير وإيجاب للحجة عليهم . وقيل كان السؤال أولاً ثم حُتم على أفواه المذنبين وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم ، وهو قول ينظر إلى آية سورة النور : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وأولى من هذه الأقوال جميعاً قول من قال إنهم مسئولون

حَتْمًا ، وإنما المراد أنه لا يقال للذنب أنت مذنب لتقريره بل يُعَرَّفُ ذلك تَوًّا بمجرد بعثه ومعاده لما سُجِّلَ عنه في علم الله بكتاب أعماله على نحو ما عرضنا لذلك في غير هذا الموضع . ويوضح القرآن في آية الموازين المذكورة آنفًا وما يماثلها دقة الحساب حينئذ وأن الموازين لا تُهْمَلُ أدقَّ الدقائق حتى لو كانت ( مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ) أو ( مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ) . فهناك سؤال ، وهناك حساب ، وهناك عدالة مطلقة ، والناس يُعرضون على ربهم وقد عُرفَ ظاهريهم وباطنهم وما أخفت صدورهم ، وكلُّ شخص يُدعى بكتاب أعماله ، ويتسلمه بيده ، فإن أعطيه بيمينه كان من أهل الجنة وإن أعطيه بشماله كان من أهل النار على نحو ما تصوّر ذلك آيات الحاقّة في الحديث عن يوم القيامة والعرض على رب الكائنات : ( يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ . . وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ وَلَمْ أَذْرَ مَا حَسَابِيَةَ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ) وكل ذلك يعنى الحساب وأن الإنسان يجد أعماله يوم القيامة منشورة أمامه بتفاصيلها جميعاً ، وفي ذلك يقول جلُّ شأنه في سورة الكهف : ( وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ) . وهذا كله يُرَادُ به تنبيه الإنسان على ما ينتظره من السؤال والحساب وأنه معروض على ربه ليوفيه جزاءه على ما كسب من أعمال خيرة واكتسب من أعمال سيئة . أما المطيع ، فله الجنة والنعم ، وأما العاصي فله النار والجحيم . بيان ربّاني رحيم لأفراد الثقيلين كى يختاروا لأنفسهم ، وكى

يتركوا طريق العاصين الآثمين إلى طريق الطائعين المتقين .

(يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ نِسِيمَاهُمْ فَيُوْخِذُ بَالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ \*  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ):

المجرمون هم المذنبون الذين اقترفوا السيئات . والنسِيمَا العلامة ، وتُمَدُّ فيقال النسِيمَاءُ ، وسِيمَا الشخص ما يبدو على وجهه أو على هيئته بصفة عامة ، وفي سورة الفتح : (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ). ويردّد القرآن أن الكفار يحشرون يوم القيامة سود الوجوه سواد الدخان أو سواد القطران ، في حين تكون وجوه المؤمنين مبيضة ضاحكة مستبشرة . وفي سورة طه : (وَنَحْمُرُهُمُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) والمراد زرقة الأعين ، وهي سِيْمَا بَشِيعَةٌ : اجتماع الوجه الأسود مع العيون الزرقاء . وقيل الزرقة في الآية كناية عن العمى وفقد البصر . والنَّوَاصِي جمع ناصية ، وهي الشَّعْرُ في مقدّم الرأس . والمعنى أن الزبانية وهم جنود الله من الملائكة القائمين على عذاب الكفار يأخذون بنواصيهم وأقدامهم فيلقونهم في النار أو يجزؤونهم إليها آخذين بنواصيهم تارة وبأقدامهم تارة ثانية أو يجمعون بين نواصيهم وأقدامهم في سلاسل ويسحبونهم على وجوههم أو على ظهورهم . وصورّ الله ذلك في سورة غافر ، فقال : (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) والأغلال والسلاسل القيود يُسْحَبُونَ بها في جهنم ، ويُلْقَى بهم في النار حَطْبًا لها ووقودًا . ويصورّ الله في سورة الحاقة كيف يأمر خزنة النار من الزبانية بسحب الكافر الأثيم إلى الجحيم بقول عزّ سلطانه : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ سورة الرحمن

صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) وهو يأمرهم أَنْ يَغْلُوبُوا مِنَ الْغُلِّ وهو القيد أو الطوق من الحديد ، أى يضعوه فى يده أو فى عنقه أو يجمعوا به يديه إلى عنقه ، ثم يُصَلُّوه النار ، فيدخلوه فيها ليتعذب بها ، جَزَاءً وَفَاقاً لِكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ . ويقول لهم ضعوه فى سلسلة ذرعها أو طولها سبعون ذراعاً حتى تلفت جسده حلقاتها ، وحتى يضيق عليه أشد التضيق فلا يستطيع حراكاً . وذكر الله أن طول السلسلة سبعون ذراعاً ، ويشيع عند العرب استعمال السبعة والسبعين فى التكثير ، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ فى سورة التوبة لرسوله : (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) أى 'مرات كثيرة . وكان الله عزَّ شأنه إنما أراد بذكر السبعين ذراعاً وصف السلسلة بالطول ، لأنها إذا طالت كان إرهاب الكافر بها أشد . ويضيف الله إلى ما تقدم من عذاب الكفار وسيأمر الكثيبة أن سرايلهم وأقمصتهم لن تقيهم النار ، فهى ليست ثياباً ولا أردية ، إنما هى قَطْرَانٍ كما جاء فى سورة إبراهيم : (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ) ، فهم موثقون فى الأغلال والأصفاد . وقد طُليت أجسادهم بقطرانٍ لَزَجٍ كَرِيهِهِ الرَّائِحَةِ سَرِيعِ الْاشْتِعَالِ بِالنَّارِ . وهى كلها صور تهول وترعب وتفزع ، فمن قطران، إلى سواد وجوه إلى جَرٍّ وسحب فى الأغلال والسلاسل الثقال . والله يصور كل هذا النكال بالكفار ليزدجروا وينتهوا عما هم فيه من عَمَى وكفر وضلال فإن غداً أسود خطيراً ينتظرهم ، ولن يفلتوا من عقاب الله إن هم استمروا فى شركهم وعنادهم ولم يراجعوا أنفسهم فى دنياهم ولا ثابوا إلى رشدهم . وقد فتح الله لهم أبواب التوبة على مصاريعها كى يقرؤا على أنفسهم بخطيئاتهم وآثامهم وذنوبهم

ويتوبوا إليه توبة نصوحاً ، يتخلصون بها من كل أوزارهم ، ويدخلون في طاعته فيفوزون بعفوه ومغفرته . وما من موضع في القرآن ذكر الله فيه العقاب إلا شفعه قبله أو بعده بقبول التوبة والعضو والغفران من مثل قوله في سورة غافر : ( غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ) . وقوله في سورة طه : ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ) وقوله في سورة الزمر : ( إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ) . وهي دعوة رحيمة تقتنر دائماً بوصف عقاب الكفار ليتدبروا أمرهم وغدهم ، وليسارعوا إلى طريق الهدى والصلاح ، رحمت وآلاء من الله على عباده ينبغى أن يتلقَّوها بالشكر والعرفان .

( هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ \* يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

جهنم النار ، وهو أحد أسماءها الدائرة في الذكر الحكيم ، والكلمة مشتقة من الجهامة ، وهي قبح الوجه وغلظه . واتخذها القرآن علماً على نار الله الموقدة كما في هذه الآية ، وتتردد في ستة أسماء أخرى قيل إنها مع جهنم دركات النار السبع ، وهي الجحيم ، من الجحمة وهي تاجع النار ، كما في آية سورة المائدة : ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ) . وسقر وقيل إنها اسم للطبقة السادسة من جهنم ، وفي سورة المدثر : ( سَٰضِلِيهِ سَقَرًا وَمَا أُذْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ) . والسعير جمر النار من السعير وهو حرها وتوقدها ، وفي سورة الأحزاب : ( إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ) . واللظى وهو اللهب قيل إنها اسم للطبقة الثانية من جهنم ، وفي سورة المعارج : ( كَلَّا إِنَّهَا لَلَّذَىٰ نَزَّاعَةُ لِّلشَّوَىٰ ) تنزع أطراف الجسم لشدة

حرارتها . والاسم السادس الحُطْمَة من الحُطْم وهو التدمير ، وفي سورة الهُمزة :  
(كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) . والاسم  
السابع الهاوية سميت به النار لبعدها عمقها ومهواها ، وفي سورة القارعة :  
(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ )  
وأُمُّه مأواه على التشبيه كأنها تتشوق إلى ضمه إلى صدرها على نحو ما تتشوق  
الأم إلى ضم ابنها وأخذها بين ذراعيها ومعانقته . والقرآن الكريم يصور عذاب  
النار صوراً مفزعة مرعبة تملأ القلوب هلعاً بما يرسم من أهوالها على شاكلة وصفه  
لعقاب الكافرين في سورة الحج (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ  
فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ  
حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)  
فليس لهم ثياب تفصل لهم سوى ألسنة النار التي تحيط بأجسادهم  
وتحرق جلودهم . و (النجم) وهو الماء الحار أو الفلز المذاب يُصَبُّ فوق  
رؤوسهم فيذيب جلودهم وأحشاءهم ، ويحاولون الفرار من هذا العذاب ،  
ولكن أنى لهم فمطارق الحديد بأيدي خزنة جهنم وهي تتلقاهم كلما فكروا  
في الخلاص والفرار . ويقال لهم : (ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) بما أشركتم بالله  
وأسرفتم في المعاصي والخلاف على أوامره ونواهيها ، وبما اقترفتم من الخطايا  
والموبقات فحقَّتْ عليكم اللعنة وحقَّ عليكم غضب الله وعقابه الأليم .  
وتتوالى في الذكر الحكيم صورُ النَّصَبِ والشقاء الذي يعانيه الكفار والعاصون  
في الجحيم ، فهم يتضورون جوعاً ويلهثون عطشاً ، وينادون أهل الجنة  
إلى أن تُبْحَ أصواتهم أطمعونا مما أطعمكم الله واسقونا مما سقاكم ،  
ولا مغيث ولا مجيب ، يقول جلُّ شأنه في سورة الأعراف : (وَنَادَى أَصْحَابُ

النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ) وهو إذ حَرَّمَهُمَا عليهم أبدلهم منهما أكلةً وأشربةً تشدوي بطونهم وأحشاءهم شيئاً . أما أطعمتهم فمنها الغسلين كما في سورة الحاقة في عذاب الكافر الأثيم : ( فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ) وهو من أشجار النار الملتهبة العيدان التي تحرق كل ما تشتمل عليه حرقاً . ومن أطعمتهم الضريع وهو يابس الشوك ، يَنْبُتُ لَهُمْ فِي النَّارِ ، وَيُلْهَبُهُمُ الْجُوعُ فَيَلْتَهُمُونَهُ وَلَا يَفِيدُونَ مِنْهُ غِذَاءً ، إِنَّمَا يَفِيدُونَ الْمَاءَ وَعَذَاباً كَمَا صَوَّرَتْ ذَلِكَ آيَاتُ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ : ( لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ) . وَأَبْأَسُ أَطْعَمَتِهِمْ وَأَشَدُّهَا عَذَاباً وَنَكَرًا شَجَرَةُ الرَّقُومِ وَفِي سُورَةِ الدُّخَانِ : ( إِنَّ شَجَرَةَ الرَّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ) وهى مثل الضريع والغسلين من أشجار النار ، ولا وجود لها في الدنيا ، إنما تنبت في الجحيم طعاماً للكافرين حين يعصهم الجوع ، فيضطرون اضطراراً إلى الطعام منها يريدون أن يملثوا بطونهم فيملثوها بما يشبه النحاس والفلزات المنصهرة ، حتى ليغلي مثلها في الأحشاء كغلي الماء الحار المتناهي في الحرارة . ويتوعد الله بها عتاة الكافرين المعاندين الذين جحدوا الشرائع والبعث والمعاد ولقاء الله في اليوم الآخر ، يقول في سورة الواقعة : ( ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ) فسيبلغون من ضراوة الجوع أن يمدوا أيديهم إلى هذا الشجر ويفتحوا أفواههم ويزددوا أعواده وثماره ، وهم لا يزدردون ولا يبتلعون إلا جمرًا ملتهباً ، ويندفعون تَوًّا يدفعهم العطش الضارى إلى الحميم أو قل إلى الماء المغلى الذى

لا يَرَوِي غُلَّةً ولا ظمًا ، فيشربون ويعاودون الشرب مراراً ولا يرتون كالهميم أو كالإبل العطاش التي يُصيبيها داءُ الهيام الشبيه بالاستسقاء فتشرب حتى الموت ولا تُحس رِيًّا ، وهل يمكن لِجَمْرِ الرُّقُوم التي امتلأت منه بطونهم أن تطفئه نارُ الحميم ؟ إنها تزيد توفداً ، وتزيدهم ظمًا . ويصور الله هذه الشجرة صورة بشعة ، فيقول في سورة الصافات : ( إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَا كَلِمَةَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ) والشَّوْبُ الخلط . والمزج ، والطلعُ للنخلة ، فاستعير لما تحمله شجرة الرُّقُوم من ثمار . ويقول الله إنها تنبت في قاع الجحيم ، ثم تمتد ساقها وغصونها في دركات النار ، ويتراعى طلوعها في صورة كريمة قبيحة المنظر أشد ما يكون القُبْح مرأى ومنظراً ، صورة أشبه ما تكون بصورة رؤوس الشياطين المتناهين في القبح والتي يشبه الناس بوجوههم قبيح الصورة منهم ، فيقولون كأن وجهه وجه شيطان تعبيراً عن بشاعته ، وقد يقولون إن رأس هذا الشخص رأس شيطان تبشيعاً له وتقبيحاً . وكلما ضَغَطَ الجوع الخانق على الكفار الجاحدين أكلوا من هذه الشجرة أو من الضريع أو من الغسلين . ويشتعل العطش في بطونهم ، فيستغيثون ، ويُعَاثُونَ بماء كالمهل شديد الحرارة يَصْهر ما في بطونهم . ويحاولون الفرار من هذا العذاب فيفرون من الجحيم إلى الجحيم أو إلى حميم متأجج ، كما قال تعالى : ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتِينَ ) فهم يطوفون أو يدورون بين الجحيم والحميم الآتِي المضطرم ، وكأنما يحاولون الخروج فيضربهم خزنة جهنم بمقامع من حديد . وليس الحميم شراباً أهل النار وحده ، فمن شرابهم الصديد وهو ما يسيل من أجسادهم وحروقهم ، شرابٌ تشمئز منه النفوس ، شرابٌ فظيع لا يطيقه إنسانٌ ، وفي ذلك يقول جلَّ شأنه في سورة إبراهيم : ( وَخَابَ

كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مَنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ. .

وهذا الماء مع ننتنه ورائحته الكريهة يضطر كل جبار بسبب ظمئه القاتل أن يتجرَّعه ويشربه نُغْبَةً بعد أُخرى ، وهو لا يكاد يُسِيغه ، إذ يتعثر في حلقه غُصَصًا مميتة ، وكأن الموت يطلُّ عليه من كل جانب (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) ، ويأخذه من ورائه (عَذَابٌ غَلِيظٌ). عنيف أشد ما يكون العنف أَخْذًا وَبِيلا . ومن شراب أهل النار العَسَاق وهو ماء مظلم منتن ، وقيل عَيْنٌ في جهنم يسيل إليها صديد الكفار وقيل بل الصديد نفسه ، وقيل إنما هو الزمهرير أو البرد الذي لا يُطاق . ولم يُذَكَرْ في القرآن إلا مَرَّةً واحدة في سورة النبأ : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَدْخُفُونَ فِيهَا بُرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا جَرَاءً وَفَاقًا) .

والبرد اختلف فيه ، قيل النوم ، وقيل كل برد بما يشمل برد الريح وبرد الظل وبرد النوم . وقيل برد الريح وحده ويتسقى مع تفسير العَسَاق بالزمهرير ، وكان القرآن خَوْفَ بزمهرير الثلج كما خَوْفَ بلهيب النار ، وبذلك يسقط. قول بعض أعداء الإسلام بأن حرَّ الجزيرة هو الذي جعل العذاب في الدين الحنيف مقصوراً على النار ، ولو مَدُّوا أعينهم إلى أي كتاب جغرافي لعرفوا أن في الجزيرة جبالا يعلوها الثلج على نحو ما هو معروف ببادية الشام ، وتنزل الثلوج ويشد الزمهرير ببادية العراق ، فحتى لو كان القرآن خاصاً بالعرب لتوعدم بالبرد القارص كما توعدم بالنار ، فما بالنا إذا كان قد توعدم فعلاً به كما في هذه الآية ، وما بالنا إذا كان الرسول مبعوثاً للناس كافة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد رَدَّ ذلك القرآن كثيراً قائلاً إنه جاء

( نذيراً ) لِلْبَشَرِ . وتفسير الغساق بالبرد الشديد رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل إمام أهل الكوفة كما رُوِيَ عنه أنه قال إن عذاب الغساق أشدُّ على الكافرين من عذاب النار آلاف المرات ، ولعل مما يشهد لهذا التفسير أن الله عزَّ ذكره وصفَ طَقَسَ الجنة بأنه معتدل لا حرفيه كحر النار ولا برد كبرد الصقيع . إذ يقول في سورة الإنسان عن أهلها وما هم فيه من نعم : ( مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ) . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اشتكتِ النارُ إلى ربها فقالت : أكل بعضى بعضاً فنفسنى ، فأذن لها في كلِّ عامٍ بنفْسَيْنِ : نفْسٍ في الشتاء ونفْسٍ في الصيف ، فأشدُّ ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم وأشدُّ ما تجدون من الحرِّ من حرها » . وتوقَّف بعض المفسرين إزاء ما جاء في آية النبأ : ( لَا يَبْئِثَنَ فِيهَا أَحْقَابًا ) لما قد يدل ظاهرها على أن مقام أهل النار فيها موقوت بأحقاب معدودة ، فقيل إن أحقاباً موصولة بالآية التالية لها بمعنى أنهم يلبثون في النار لا يذوقون أحقاباً فيها شيئاً سوى الحميم والغساق . وقيل إن المراد بالأحقاب المدد المتصلة غير المنقطعة بمعنى أنهم يلبثون في النار إلى أبد الأبدين لما ردَّده القرآن مراراً وتكراراً من أنهم خالدون فيها أبداً من مثل قوله تعالى في سورة الأحزاب : ( إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ) وهو القول الصحيح . وذهب بعض المتصوفة إلى ظاهر الآية وأن لعذاب الكفار نهايةً في الآخرة ورووا في ذلك خبراً عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول لياتين على جهنم زمان تصفُّق أبوابها أو تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ بعد أن لَبِثَ فيها الكفار أحقاباً . وعلل بعضهم ذلك بأنه بعد مضي الأحقاب المتطاولة يَأْلَفُ الكفارُ عذاب

النار ولا يعودون يتألمون لتعودهم إياه طويلاً ، بل إنهم ليتلذذون به ويستعذبونه (هكذا قال بعض المتصوفة) حتى إنه لو هبَّ عليهم نسيم من الجنة استكروه ولم يستروحوه ! وبذلك ينتهى عذاب النار ويغفر الله لجميع الكفار كما قال في سورة الزمر : ( إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ) . والحق أن آيات الذكر الحكيم تشهد شهادة قاطعة بأن الكفار خالدون في النار خلوداً مؤبداً . ومثل آية سورة النبأ السالفة ينبغي أن يحمل على تتابع الحقب إلى ما لا نهاية ، ومثلها آية سورة هود : ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ) ، فإن الاستثناء فيها يراد به معنى الشرط لبيان أن كل شيء منوط بمشيئة الله وإرادته . وبذلك يفيد الاستثناء الدوام وكأنه مكان (أبداً) في مثل قوله تعالى في سورة النساء : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ) وقوله في سورة الجن : ( وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ) . أما الاستشهاد بقوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ) فهو مقتطع من آية سورة الزمر : ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ) وواضح أن الآية موجهة إلى المؤمنين المذنبين ، ولذلك يقول لهم الله لا تياسوا من رحمتي ، فإنني سأغفر ذنوبكم ، فهو غفران على التخصيص لا على العموم بحيث يشمل الكافرين المذنبين ، وكان هذا عهد من الله ألا يخلد مؤمناً في النار . وعند أهل السنة أن المؤمنين طائفتان : فائزون وعاصون ، والفائزون يرون النار وهم على الصراط ، والعاصون يعذبون في النار بعض العذاب على مقدار ذنوبهم ، أما الكفار فيزج بهم في أطباقها إلى أبد الآبدين ! وبهذا التصوير فسرت آية

سورة مريم : ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ) والضمير يعود على جهنم . وكان الفائزين يردونها بمرورهم على الصراط الممدود عليها ، والعاصين يردونها حقاً ولكن إلى أجل ، حتى يغفر الله لهم ، أما الكفار فيردونها ويظلون بها دار إقامة لهم أبدية . وقيل ورودها الجلوس حولها ، وقيل إذا دخلها المؤمنون كانت عليهم برّداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . ومن الممكن أن تكون الآية موجهة إلى الكفار وأن أحداً منهم لن يفلت منها أبداً . على كل حال لن يخلد عصاة المؤمنين في النار . بل إن الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم سواء تابوا أو ماتوا من غير توبة في رأى أهل السنة . أما المعتزلة فاشتروا التوبة ، لأن عذاب الله في رأيهم تابع لحكمته وعدله لا لجبروته وسلطانه . ولذلك تُنكر طائفة منهم ما ارتضاه أهل السنة من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن استحق للذنوب من الذنوب عذاب الله لتعارض ذلك في رأيهم مع العدل الإلهي المطلق . أما الكفار فإن تابوا من الكفر قبل أن يحضرهم الموت توبةً نصوحاً قبل الله توبتهم ، وإن ماتوا مصرين على كفرهم فلن يغفر الله لهم كما قال في سورة النساء : ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ) . وهؤلاء المشركون هم الذين أعدَّ الله لهم مشاهد العذاب آتفة الذكر ، فقد أبقوا عن طاعته وعاشوا في الخطيئة كأبشع ما تكون المعيشة ، فاستحقوا أن يعذبوا أبشع عذاب ، وألاً تأخذ الله فيهم رحمةً أو رافةً أو يمسهم بضرب من الرفق والعضو والغفران ، إنهم ليسوا أهلاً إلا للعقاب والنكال وأن يعيشوا في النار حطّاباً لها ووقوداً ، يطعمون من شجرها البشع جمرًا ملتهباً ، ويتجرعون من مائها صديداً بشعاً ، وكلما احترقت جلودهم بدلّهم الله غيرها ليظلوا في نفس النصب والشقاء

والعذاب ، وفي ذلك يقول عَزَّ من قائل في سورة النساء : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَآ نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) . وهى نفسها السراويل المذكورة فى آية سورة إبراهيم : (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ) ، سُمِّيتْ سراويلهم كما مر بنا جلوداً للزومها جلودهم على المجاورة . وهذه المشاهد المرعبة من عذاب الكفار يوم القيامة وفى الحياة الآخرة يضيف إليها القرآن مشاهد أخرى تصور ما يكونون فيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، فى حين يعيش أهل الجنة فى نور من فوقه نور ، مما يجعل المنافقين يتوسلون إليهم أن يقتبسوا من نورهم كما جاء فى سورة الحديد : (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) فهم وأمثالهم من الكفار يلغهم ظلام دَامِسٌ فيتجهون إلى أهل الجنة يتضرعون إليهم أن ينظروا نحوهم ليأخذوا من نورهم قيساً وَهَاجَآ ، فيقال لهم : انظروا وراءكم . فيعودون يظنون أن من وراءهم نوراً فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون فيجدون سوراً صفيقاً ضُربَ بينهم وبين المؤمنين ، له بابٌ باطنه من قِبَلِ أهل الإيمان فيه الرحمة ، وظاهره من قبلهم وقيل أمثالهم لمن الكفار فيه العذاب . ودائماً يقترن بالعذاب الحسى عذابٌ نفسى ، فالكفار لا يشقون بالظلام ولا بالنار وتحريقها ولا بالزقوم وطعامه الكرى ولا بالصديد وشربه فحسب ، بل يشقون أيضاً بأهوال نفسية تُعَذِّبُ بها نفوسهم كما تُعَذِّبُ أبدانهم ، ولذلك تتكرر كلمة (ذوقوا) و (ذُق) و (ليذوقوا العذاب) للدلالة

على أن تعذيب الأبدان يرافقه تعذيب النفوس وإيلاهما. ويصور الله أعمالهم في الدنيا منصوبة أمام أعينهم في الآخرة حسرات ، يقول جل شأنه في سورة البقرة : ( كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ) ، فهم يتحسرون في الآخرة على ما أجزموا في جنب الله وما عملوا من سيئات كما لم يتحسر أحد ، حسرات تملأ نفوسهم شقاءً وغناءً وآلاماً ممضة ، لا سبيل إلى التخلص منها ، بل دائماً تُصَبُّ عليهم صباً ، كما يُصَبُّ الهوان والإحساس بالصغار والحقارة حتى ليصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من العذاب ، ولذلك تكرر وصفه في القرآن بأنه (عَذَابٌ مُهِينٌ) إذ يذوق فيه الكفار كل ألوان الهوان (وَتَرَهُمْ ذُلًّا) لا تكاد تبقى فيهم بقية من إنسانيتهم ، بل إنه لم يعد لهم منها شيء سوى الندم والحسرة والشعور العميق بالذل والهوان (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ) خزياً لانهاية له . وكل ذلك العذاب النفسى والحسى وصفه الله في القرآن لا ليصور انتقامه من الكفار العصاة وإنما ليزجرهم عن ارتكاب المعاصى ويرغبهم في الطاعات كما جاء في سورة الأنفال : ( لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا ) وصور ذلك أيضاً في آية الإسراء : ( وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ) ولا شك أن هذا التخويف والوعيد نعمة أو نعم عظيمة للجن والإنس كى يزدجروا عن غواياتهم وينتهوا عن ضلالاتهم ، ويسلكوا طريق النجاة قبل فوات الأوان .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

بعد أن عدد الله جل شأنه النعم الدينية والدنيوية وأوضح عذاب الكفار

بالزجر عن المعاصي واللاحاق بالمتقين مما يؤدي إلى نعم الله السابعة ، إذ كان بيان ذلك ناهياً عن العصيان والكفر والفسوق وداعياً إلى الطاعة . بعد تصوير ذلك كله شرع الله يعدد النعم التي يُسبغها على عباده المؤمنين المطيعين في الآخرة . والخوف توقع مكروه بعلامات أو أمارات مظنونة أو متيقنة ويقابله الرجاء وهو توقع محبوب بمثل هذه الأمارات والعلامات المتيقنة والمظنونة ، وهو فريضة على كل مؤمن ، يقول تعالى في سورة آل عمران : ( وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) ويقول في سورة «المؤمنون» : ( إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ) فهم دائماً على خوف وخشية ووجل من عقاب الله ومن أن لا يقبل منهم ما يعملون ، وهم لذلك يسارعون ويسابقون إلى الخيرات والأعمال الصالحة ، وهم مع ذلك مشفقون أن تُردَّ عليهم كما جاء في سورة السجدة : ( يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ) خوفاً من العقوبة وطمعاً في الثوبة . وعلى نحو ما يدفعهم هذا الخوف إلى الخير يصرفهم عن الشر وكل ما يجرُّ إلى الإثم . وفي الحديث أن السيدة عائشة رضی الله عنها قالت : «قلت يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ( وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ) أهو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يُقبلَ منه . » فالخائفون الوجلون هم الذين يعملون الصالحات ويخشون ألا يتقبلها الله منهم لا الذين يأتون المعاصي ثم يخافون الله ويخشونه ، فخشية هؤلاء وخوفهم ليسا من باب هذا الخوف المحمود الذي يجنب صاحبه الآثام ظاهراً وباطناً والذي يحثه

على عمل الصالحات والاجتهاد فيها ، ولذلك قيل : لا يُعَدُّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً . وهو ليس استحضاراً ولا استشعاراً للرعب من عقاب الله ، وإنما هو مراقبة من المسلم لربه في كل ما يقول وكل ما يفعل لأنه معروض عليه يوم القيامة ومجزى بما قدّمت يده . وكأنه ضُرب من قلق المسلم على مصيره فلقاً يوجد في دخائل نفسه الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخشية من عذاب الله في سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاء والطمع في نعيمه وفراديسه . وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية » . ويروى أن أبا بكر الصديق فكّر ذات يوم في القيامة والموازن والجنة والنار وصفوف الملائكة وطىّ السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال : « وددت أنى كنت خُصراً من هذه الخُصَر تَأنى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أُخلَق » . وهى صورة عظيمة لما زرع القرآن الكريم فى ضمير الصديق من الخوف الصادق المثمر ، حتى ليصبح بعد الرسول مثلاً أعلى للمؤمنين فى التقوى والعبادة والأعمال الصالحة ، ومع ذلك يرهب الله ويخافه ويخشى لقاءه . وفيه وفى أمثاله ، بل أيضاً فيمن لا يبلغون منزلته من المؤمنين الذين يكفون أنفسهم عن المعاصى ويتحررون الطاعات خوفاً من الله ورهباً ، نزلت الآية التى نحن بصددنا ونزل مثل قوله تعالى فى سورة فصلت : ( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ) . وكلمة (مقام) فى الآية مصدر بمعنى القيام ، والمراد إذن بمقام الربِّ إشرافه وإطلاعه وكونه مراقباً للإنسان مهيمناً عليه لا يخفى عنده شىء من أمره أو من قوله وفعله كما وصف نفسه فى سورة الرعد بأنه ( قائمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بما

كَسَبَتْ) بمعنى أنه رقيب على كل نفسٍ حفيظ. عليها عالم بكل ما عملت في دنياها من خير أو شر ومجازيها به لا يظلمها مثقال ذرة . وقيل بل كلمة (مقام) اسم مكان والمراد مكان الخلق وموقفهم الذى يقفون فيه للعرض يوم الحساب (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). وكأن تقدير الكلام فى كلمة (مَقَامَ رَبِّهِ) مقام الله الذى يقوم فيه العباد للحساب ، وهو مقام الحشر والمعاد . وينبغى أن نعرف أن الله جَلَّ جلاله منزّه عن القيام والمكان ، لما يؤول إليه ذلك من تشبيهه بالعباد . وكل ما جاء فى القرآن مما قد يفيد تشبيهاً أو تجسيداً إنما هو تمثيل لعظمة الله وجلاله . وكذلك ذكرُ المقام هنا فلا قيام ولا وقوف ولا واقف إنما هو تصوير لعظمته وجلاله ، وإنه ليجلّ عن أن يحيط. به شيء أو تحيط. به حواس . وأصل الجنة البستان الذى تغطّى أشجاره رقعة من الأرض ، وقد سُمى الله بها دار عباده المتقين فى الآخرة ، وقال إن عرضها كعرض السموات والأرض ، يقول فى سورة آل عمران : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وقد نبّه جَلَّ شأنه بسعة عرضها على أن سعة طولها لا تقف عند حدٍّ ، وقال ابن عباس : «تُقَرَّنُ السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تُبَسِّطُ. الثياب ويُوَصَّلُ بعضها ببعض ، فذلك عَرْضُ الجنة ولا يعلم طولها إلا الله » ، ويُرْوَى أنه قيل للرسول عليه السلام : إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال : «سبحان الله ! فأين الليل إذا جاء النهار » وهو يشير إلى قدرة الله التى لا نهاية لها وأنه لا غاية لسعة مملكته فى الدنيا والآخرة . ورأى أهل السنة أن الجنة مخلوقة وموجودة لقوله تعالى بعقب الآية السالفة : (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) فهى معدة مهياً قائمة ، وذهب

المعتزلة إلى أن التعبير بالفعل الماضى بدلا من المضارع المستقبل للدلالة على تيقن هذا الإعداد وأنه واقع لا محالة ، وقالوا إن الجنة غير مخلوقة الآن بل مثلها مثل النار يبتدئ الله خلقهما إذا طوى السموات والأرض ، لأنهما دارا الجزاء بالثواب والعقاب ، فخلقهما إنما يكون بعد تكليف العباد باتباع شرائعه وانقضاء هذه الدنيا حتى لا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء في زمن الدنيا كما لا يجتمعان في زمن الآخرة . وعلى نحو ما ذكر القرآن عَرَضَ السموات والأرض ذَكَرَ أَنْ لَهَا أَبْوَابًا عِدَّةٌ ، يقول الله جَلَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) وَخَزَنَتُهَا مَلَائِكَتُهَا الْحَافِظُونَ لَهَا ، ولم يذكر الله عدد أبواب الجنة ، وفي الحديث : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيُسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا افتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » . ولعل الرسول لا يقصد العدد بالتحديد ، إنما يقصد كثرة أبواب الجنة وأن المؤمنين يستطيعون الدخول إليها من أى باب يشاءونه بإذن الله . وقد وُصِفَ جَوْهَا بِأَنَّهُ مَعْتَدِلٌ - كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن عذاب أهل النار - ليس بارداً شديد البرودة ولا حاراً شديد الحرارة كما قال تعالى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا) . والجنة ليست رياضاً وبساتين فحسب ، بل هي أيضاً قصورٌ شامخة ، كما قال تعالى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ) وقال في سورة العنكبوت : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا) ، والغرفة العلية أو الحجرة المشرفة ، وهي غرف بعضها فوق

بعض ، طبقات فوق طبقات مَشِيدَات مزخرفات محكمات باذخات ، وفي الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لُغْرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا من بطونها وبطونها من ظهورها » فقام إليه أعرابيُّ فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام » وفي الحديث أيضاً : « إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُرِّيَّ الغامر من الأفق الطالع من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » في الدرجات ، فقال المستعمون إليه : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذى نفسى بيده ورجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . ورؤيَ أَنه قيل للرسول : حَدِّثْنَا عن الجنة ما بناؤها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لبنة ذهب ولينة فضة وملاطها ( طلاؤها ) المسك الأذفر . ( ذكى الرائحة ) وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، من يدخلها ينعم ولا يبئس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » .

واختلف المفسرون في المراد بالجننتين في الآية الكريمة ، فقيل جنة للخائف من الإنس وجنة للخائف من الجن . وقيل بل جنتان للخائف من الطرفين : جنة لعقيدته وجنة لعمله . وقيل بل جنة لعمل الطاعات وثانية لترك المعاصي . وقيل جنة يثاب بها المؤمن على قدر ثوابه وجنة ثانية يتفضل بها الله عليه . وقيل جنة معجّلة في الدنيا بلذة المناجاة والتقوى والعمل الصالح وجنة مَوْجَّلة هي الموعودة في الآخرة ، وقيل جنة روحية وجنة جثمانية . وأولى من هذه الأقوال أن تكون هناك جنتان فعلا في الدار الآخرة تنتظران المتقين المقربين ، ومن ورأهما جنتان أخريان كما ستنص على ذلك آية

تالية بعد وصف هاتين الجنتين الأوليين . وجاء مراراً في الذكر الحكيم أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات لا في جنة واحدة ولا في جنتين اثنتين بل في جنات ، وقالوا إن ابن عباس ذكر أنها سبع : جنة عدن أو جنات عدن المذكورة في سور كثيرة ومثلها جنات النعيم أو جنة النعيم كما قال تعالى في سورة يونس : ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ) وقال في سورة المعارج : ( أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَعِيمًا ) . وجنة الفردوس كما قال جلَّ شأنه في سورة «المؤمنون» : ( الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) وجنة المأوى كما جاء في سورة النجم : ( عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ) . ثم جنة الخلد ، يقول تعالى ذكره في سورة الفرقان : ( جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَهَٰصِرًا ) . ودار السلام المذكورة في آية الأنعام : ( لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ) . وعليون المذكورة في آية المطففين : ( كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ) . ومن يرجع إلى آيات الذكر الحكيم ويقرن هذه الجنات بعضها إلى بعض يلاحظ . أن الأربعة الأولى وُصفت بأنها منازل ومسكن للأبرار المؤمنين كقوله عزَّ شأنه في سورة التوبة : ( وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ) . ونفس كلمة ( عدن ) معناها الإقامة والنزول والسكن . وكذلك وصفَ الله في سورة الصافات ثواب عباد الله المخلصين بأنهم ( فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ) ، ثم قارن بينهم وبين عقاب الكافرين فقال : ( أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ) والنزل ما يهبط للنزول من الطعام والراحة . وبذلك تُعدُّ جنات النعيم منزلاً ثانياً من منازل الجنان ،

ومثلها جنة الفردوس كما قال تعالى في سورة الكهف : ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ) أى منزلاً ومقاماً كريماً ، ويقال أصل الفردوس البستان الذى يجمع أجمل ما فى البساتين . وكذلك وُصفت جنة المأوى فى آية سورة السجدة : ( أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) . أما الجنات الثلاث الأخرى فلم توصف بأنها مساكن ولا نُزُلٌ للمؤمنين ، وكأنما هى نعوت وأوصاف للجنات المذكورة . وأولها جنة الخلد ، وقد جاء الخلد فى وصف النار وعذابها كما فى آية فُصِّلَتْ : ( ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ) . وهو بذلك وَصَفُ مشترك بين الجنة والنار أُريد به الدوام ، وليس عَلَمًا على الجنة . وكذلك وَصَفُ الجنة بأنها دار السلام ، ليس عَلَمًا لها وإنما هو وصف لما يجده فيها المتقون من أمن وطمانينة ، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم : ( تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ) تأكيداً لذلك . أما ( عَلِيُّونَ ) فالآيات التى جاءت فيها لا تدل على أنها من الجنات ، إذ يقول جَلَّ ذِكْرُهُ فى سورة المطففين عن أعمال المتقين وتدوينها : ( كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيٍّ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّنَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ) . وواضح أن الله ، تعالى شأنه ، فسر العليين بأنها كتاب جامع لأعمال الأبرار ، والكلمة بذلك عَلِمٌ على هذا الكتاب ، كما يدل ظاهر الآيات . ومن قال إن عليين فى أعلى الجنة يحتاج إلى تقدير مضاف محذوف مثل : « موضع » ونحوه . وهو تقدير لا داعى إليه ، لأن الله ذكر بعد ذلك جزاء الأبرار فقال : ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ) وصور النعيم فى الآيات التالية . وبذلك يتضح أن الجنات المذكورة فى القرآن أربع طبقاً للجنات

الأربع المذكورة هنا في السورة وهي عدن والنَّعِيم والفردوس والمأوى، ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف جَنَّات السورة الأربع فقال: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما». ويتضح من المقابلة بين الآية الأولى: (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ) والآية الثانية (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) أن الجنتين الأولين أشرف وأرفع من الجنتين التاليتين، وكأنهما للخائفين من المقربين ذوى الدرجات العلى (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) لمن يأتي وراءهما من أصحاب اليمين. ولكن أى الجنات الأربع السابقة يوضع في الجنتين الأولين وأياها يوضع في الجنتين الأخيرين؟ الإجابة عن ذلك بسيطة فإن من يقرون الثواب الموصوف بعدهما إلى ثواب الجنات الأربع في القرآن يعرف تَوًّا أن إحدى الجنتين الأولين جنة عدن فإن كل ما ذكر هنا من ثواب يدخل في ثوابها المذكور في آيات كثيرة مثل آية سورة ص: (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ). واللفظ الذى وُصفت به الحور العين موجود بنصه في آيات الرحمن التالية للجنتين. وفي آيات أخر متصلة بجنات عدن فُصِّلَ فيها ما جاء هنا من التَّعْنَمُ بِالْفُرُشِ على نحو ما يتضح عما قليل في مقارنتنا الآيات بعضها ببعض، وإذن فجنة عدن - إن صح ما لاحظناه - إحدى الجنتين المرادتين. والجنة الثانية جنة النعيم لنفس الملاحظة، وهي أن الثواب المقترن بها في سورتي الصافات والواقعة يلتقى مع ثواب الجنتين المذكور هنا، فقد جاءت فيه الفواكه والفُرُشُ الوثيرة، ووصفت الحورُ بأنهن (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ). وبذلك تكون الجنتان جنة النعيم وجنة عدن، وهما عطاءان كريمان خليقان بكل ثناء وشكر من الخائفين

المقربين الذين يعشون ربهم سواء أكانوا من الإنس أم من الجن . ومراً بنا أن الجن مكلفون ، واختلف الفقهاء هل يثابون كالإنس أولاً يثابون ، وذهب الإمامان مالك وأبو حنيفة إلى أن ثوابهم إنما هو السلامة من العذاب كما جاء في آية سورة الأحقاف المتصلة بالحديث عنهم : ( يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ) . واستدل أصحاب هذا الرأي بأنهم مخلوقون من نار ولا مدخل للنار في الجنة . والذي عليه كثرة السلف أن حكم الجن حكم بني آدم ثواباً وعقاباً ، لأنهم مكلفون ، بل إن كثيرين من السلف ذهبوا إلى أن مؤمنهم كمؤمني بني آدم يدخلون الجنة ، مستدلين بأنه إذا كان كفارهم وعصاتهم من الشياطين يدخلون النار فحرى أن يدخل مؤمنوهم الجنة جزاء عادلاً للعصيان والطاعة . والأولى أن نقول إن عصاتهم يعاقبون بالنار كما جاء ذلك صريحاً في القرآن إذ يقول عن الشياطين في سورة مريم : ( لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا .. ثُمَّ لَنَنْحُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ) ويقول في سورة الجن على لسانهم ووصفهم للقاسطين منهم أو الجائرين العاصين : ( وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ) . فعصاتهم وكفارهم من الشياطين وقود النار مثل كفار الإنس وعصاتهم . أما ثواب المؤمنين منهم فليس في القرآن ولا في الحديث ما يصور كقيته ، فينبغي ألا نخوض فيه ، كما ينبغي ألا ننكره ، لأن الله تعالى أعدل من أن يعاقب عاصيهم ولا يثيب مطيعهم وراشدهم ، بل لعلنا لا نعدو وجه الصواب إذا قلنا إن الآية التي نحن بصددنا وغيرها من آيات هذه السورة وما فيها من توجيه الخطاب للثقلين من الإنس والجن ، كل ذلك يدل على أن نعم الآخرة مثل عذابها مشترك بين الجماعتين . وقد وضع الله

هاتين الجنتين وما سيأتى من تفاصيل نعيمهما أمام الجن والإنس ليردّ ضالّهم وعاصيهم إلى طريق الهدى ، وليدفع راشدهم وطائعهم إلى المضىّ في طريق الفلاح وأنّ يزداد من أعمال البر والخير حتى يصبح من المقرّبين الأبرار الخليقين بجنتى عدنّ والنعيم اللتين يحفل القرآن بوصف جمالهما وصفو الحياة فيهما ورغد العيش وهناءته مما لا يخطر على بال إنسان . ويروى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تلا : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ) ثم قال : «الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام ، في وسط كل بستان دار من نور ، وليس منها شيء إلا بهترة نعمة وخضرة» .

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

أفنان جمع فتن وهو الغصن ، فهى جنات ذات أغصان لاحدلها ولا حصر ، أغصان تنشر على أهل الجنة الظلال ويجنون منها الثمار ، كما قال جلّ شأنه في سورة الإنسان : (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا) فظلالها قريبة منهم ، تُظِلُّهم لا من شمس ولا من حرارة ، فليس في الجنة حر ولا شمس وإنما بها جو معتدل ، وكأنما ظلال الغصون فيها للمتاع وزيادة النعيم ، وقد سُخِّرَتِ الغصون بجميع ثمارها لأهل الجنة كى يقطفوا منها كما يشاءون ، وعبر الله عن هذا النعيم الدائم من الطعام والظلال ، مما تعطيه الأغصان والأفنان فقال في سورة الرعد : (أَكُلُوهَا ذَائِمًا وَظِلُّهَا) ، وقال في صفة أهل الجنة في سورة النساء : (وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا) وارفأ ممتعاً تجد النفس فيه راحتها ولذتها لذّة لا توصف . ويصف القرآن ، كما مرّ بنا ، ظلّ أهل النار بأنّه غير ظليل وأنه لا بارد كسائر الظلال ولا

واقٍ من سَموم النار ، بل هو ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ . أو دخان خائق . وقد سَمِيَ هذا الدخان المميت ظِلًّا هزواً وسخرية بالكفار الآثمين . أما ظِلُّ أهل الجنة فظلٌّ يحيي النفوس ويملؤها مسرَّةً ومتاعاً ، وهو كما جاء في سورة الواقعة ظِلٌّ مَمْدُودٌ لا يتفاوت من مكان إلى مكان ولا ينقص من مكان بالقياس إلى مكان آخر . وقد توقف بعض السابقين إزاء قوله تعالى في سورة الرعد : ( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ ) فقالوا إن ( طُوبَى ) شجرة ، فليس المراد عيشاً طيباً لهم كما يدل عليه معنى الكلمة ، وإنما هي شجرة السُّدْرَة المذكورة في سورة النجم . وقد تكون الظلال في الآيات تمثيلاً لكنف الله ورحمته كما لاحظ . ذلك بعض المفسرين ، أو هي تجمع بين الظلال الحقيقية وظلال الرحمة والعطف والرأفة والنعمة . ومن الأحاديث النبوية الرائعة المتصلة بالظلال الدنيوية لا الآخروية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قال ( أقام قليلاً في وقت القيلولة وحرَّ الظهرية ) في ظل شجرة في يوم حارٍّ ثم راح وتركها » . وذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يراد بالأفنان في الآية الأغصان والظلال والثمار ، وإنما يراد فُنون النعيم الأخرى وألوانه ، ومنه قول بعض الشعراء :

ومن كل أفنان اللذاذة والصِّبا لهوتُ بهِ والعَيْشُ أَخضرُ ناضرُ

وكأن الآية تشير إلى ألوان النعيم الكثيرة التي أعدها الله للمتقين في هاتين الجنتين العظيمنتين ، سواء ما اتصل منها بطبيعة الجنة الفاتنة وأثمارها وأشجارها وثمارها وظلالها وعيونها أو ما اتصل منها بمتاع أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وفي ثيابهم وحليهم وفي نساءهم وأزواجهم من الحور العين . ويضيف القرآن في سورة الزمر إلى كل ما أحصى من هذا النعيم الذي لا يطوف بعقل

بشر في حياته الدنيا أن للمتقين ( مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ) فكل ما يفد على خيالهم ويتمنونه يجدونه تحت أبصارهم في الجنات لا مدَّ أبصارهم فقط. بل مدَّ أيديهم ، بل إنه لِيُسْبَغَ عليهم من عنده ما لم يسألوه ولم تبلغه أمانيتهم ، وإنما لألوان نعيم فوق ألوان ، ألوان لا يحيط بها وصف ولا يستقصيها نعت ، يُضْفِيهَا اللهُ عَلَى الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَحُسْنَ إِيْمَانِهِمْ وَمَضُوا يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ يَرِيدُونَ بِهَا وَجْهَهُ وَقُلُوبَهُمْ وَجِلَّةٌ مِنْ لِقَائِهِ رَاجِينَ رَحْمَتَهُ وَخَائِفِينَ خَوْفًا شَدِيدًا مِنْ عَذَابِهِ ، مع الأمل في الحظوة بشوابه وأن يعمهم بسعة فضله وبره . وإن من أعدَّ كل هذه النعم والآلاء للثقلين لخليق بأن يتعلقا بعبادته ويتمسكا بهداه رجاء القبول أو التقبل ورجاء الرضا والإثابة بالنعيم الخالد .

( فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

في كل جنة من الجنتين عينٌ جارية تجرى بماء يداعب الحصباء ، وعن ابن عباس أن حصباءهما الباقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وتراهما الكافور وحمأتهما أو طينهما المسك الأذفر الفائح وحافتيهما الزعفران . وقيل إحدى العينين من ماء غير آسنٍ والأخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل تجريان من جبل من مسك . وعن ابن عباس والحسن البصرى أن إحدى العينين السُّلْسَبِيلُ والأخرى التَّنْسِيمُ ، أما السُّلْسَبِيلُ فجاءت في سورة الإنسان ، إذ يقول جَلَّ وَعَزَّ في وصف شراب أهل الجنة : ( إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . . . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبِئْتَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ

قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى  
سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا)  
والآياتُ توضح النعيم بعين فائحة الرائحة إذ ينهل منها الأبرار كأساً من  
الخمير الصافية مزاجها الكافور الأبيض الخالص برائحته العطرة ، عين  
تتفجر لهم ، كلما شاءوا ، من فرط النعمة وشمولها . ويُطاف عليهم زيادةً في  
النعيم بأنيةٍ تحمل الأطعمة من كل لون وبأكواب ودنان من فضة لها  
شفافية الزجاج وقواريره وصفائه ولها بياض الفضة وبهاؤها وجمالها ، في  
مقادير وأحجام وأشكال مقدره مقيسة بقدر الحاجة منها قياساً دقيقاً . وفي  
تلك الأكواب البديعة يُسَقَوْنَ خمراً مزاجها زنجبيل لذيد الطعم . وإنها  
لَلْعَيْنُ الرائحة عين السلسبيل التي ينحدر شرابها في الحلق انحداراً سائغاً  
سليماً ، وما يزال وُصفاء مخلدون ، أو قل وصفاء منعمون ، لا يحول ولا يزول  
ما على وجوههم من نضرة البهاء ورونقه ، يطوفون على أهل الجنان راثحين  
غادين بتلك الأكواب ، وإنك لتحسبهم لصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم  
لؤلؤاً متناثراً يشع البهجة والجمال . وتلك عين السلسبيل وما يغمر أهل  
الجنة حولها من نعيم ، أما عين التسنيم فقد وصفها الله في سورة المطففين إذ  
يقول أيضاً في وصف شراب الأبرار وما أعدّه لهم في الجنات : (يُسْقَوْنَ  
مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ  
مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) . والرحيق من خمرة الجنة ، وفي  
الحديث : « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةَ مَاءٍ عَلَى ظَمٍّ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتومِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جَوْعٍ أَطْعَمَهُ  
اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ

خَضِرَ الْجَنَّةِ . وَوُصِفَ الرَّحِيقُ بِأَنَّهُ مَخْتومٌ خَتَامَهُ مَسْكٌ ، فَدِنَانُهُ سِدَادُهَا مَسْكٌ لَا طِينٌ كَرَقَاقِ الْخَمْرِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وَهُوَ تَمَثِيلٌ لِكَمَالِ نَفَاسَةِ هَذَا الرَّحِيقِ أَوْ هَذِهِ الْخَمْرِ الصَّافِيَةِ الْأَرَجَّةِ . وَاللَّهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى التَّنَافُسِ فِي التَّعَلُّقِ بِهَذَا الرَّحِيقِ الَّذِي يَشْفِي الْقُلُوبَ وَالنَّفُوسَ ، وَيَقُولُ إِنْ مَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمِ أَى شَرَابٍ رَفِيعٍ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ اسْتِثْقَاقُ الْكَلِمَةِ ، إِمَّا لِأَنَّهُ يَنْحَدِرُ مِنْ أَعْلَى مَكَانٍ وَإِمَّا لِأَنَّهُ أَرْفَعُ شَرَابٍ مَكَانَةً وَقَدْرًا . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِنَّهُ عَلِمَ لَعِينٍ تَجْرِي مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ ، وَكَأَنَّ السَّلْسَبِيلَ عَيْنٌ تَجْرِي مِنْ جَنَّةِ النِّعَمِ . فَهَمَا عَيْنَانِ مُتَقَابِلَتَانِ يَرْتَوِي أَهْلُ الْجَنَّاتِ مِنْ أَقْدَاحِ شَرَابِهِمَا رِيًّا لَا يَعِدُّهُ رِيًّا ، رِيًّا يَبِيعُ فِي نَفْسِهِمْ لَذَّةَ صَافِيَةٍ لَا يَشُوبُهَا أَى أَدْوَى مِنْ الْأَدْوَى الْمَعْرُوفِ لِلْخَمْرِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَا تَحَدَّثَهُ مِنْ غَيْبِيَّةٍ وَتَخْدِيرٍ لِلْعَقْلِ وَصُدَاعٍ لِلرَّأْسِ وَوَجَعٍ شَدِيدٍ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَاصْفَاءَ تِلْكَ الْخَمْرِ الْأُخْرَوِيَّةِ وَاسْتِعْذَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَهَا : (يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ) فَهِيَ خَمْرٌ تَجْرِي مِنْ مَعِينٍ أَوْ عَيْنٍ لَا تَزَالُ تَتَفَجَّرُ بِهَا ، لَيْسَتْ كَخَمْرِ الدُّنْيَا الَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِالْعَصْرِ وَضُرُوبٍ أُخْرَى مِنَ الْعِلَاجِ وَتُرْضَعُ فِي أَوْعِيَةٍ ، بَلْ هِيَ خَمْرٌ جَارِيَةٌ كَثِيرَةٌ . وَهِيَ لَذَّةٌ خَالِصَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا مَا يَشُوبُهَا مِنْ غَوْلٍ أَوْ بَعْبَارَةٍ أُخْرَى مِنْ صُدَاعٍ مُكَدَّرٍ وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَنْزِفُ الْعَقْلَ وَيَذْهَبُ بِهِ لَيْسَ فِيهَا أَى عَيْبٍ مِنْ عَيْبِ الْخَمْرِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، بَلْ هِيَ مَتَاعٌ خَالِصٌ لِلشَّارِبِينَ . وَهَذَا الْوَصْفُ نَجْدُهُ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) وَكَأَنَّمَا حَلَّتْ هُنَا كَلِمَةٌ (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) مَكَانَ كَلِمَةِ (لَا فِيهَا

غَوْلٌ) في الآية السابقة . والغول ما يغتال العقل ويذهب به من الصداع ، وهو نفس معنى (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى لا يصدر لهم صداع عنها ولا يلحقهم أى وجع أو ألم في الرأس . والله بذلك يكافئ الأبرار ، الذين حَرَّمُوا على أنفسهم حسب تعاليمه الخمرَ الدنيوية وما تجرُّ إليه من فسقٍ . خَمْرًا أُخْرَوِيَّةً أَكْثَرَ مِنْهَا لَذَّةٌ وَمَتَاعًا . وشتان بين لذة لا تدوم يمازجها الأذى وتُخَدِّرُ العقل وصداع الرأس وتدفع إلى الخطيئات والموبقات ، ولذة باقية لا تَفْنَى ولا يشوبها أى إيذاء لا للنفس ولا للرأس ولا للعقل ، لذة خالصة سائغة للشاربين . وفي النهى عن تناول الخمر الدنيوية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إِذَا تَنَاوَلَ الْعَبْدُ كَأْسَ الْخَمْرِ نَاشِدَهُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ لَا تُدْخِلْهَا عَلَيَّ فَإِنِّي لَا أَسْتَقِرُّ أَنَا وَهِيَ فِي وَعَاءٍ وَاحِدٍ ، فَإِنِ أَبَى وَشَرِبَهَا نَفَرَ الْإِيمَانَ نَفْرَةً لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَإِنِ ثَابَ ثَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَنَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ شَيْءٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » . والشارع إذ حَرَّمَهَا في الدنيا لما تجرُّ إليه من الفسوق والعصيان أَحَلَّهَا في الآخرة ، بل جعلها متاعاً صافياً مُزِيلاً مِنْهَا كُلَّ أَذَى وَكُلَّ ضَرَرٍ ، بل لقد صَوَّرَهَا مَمْرُوجَةً بِأَنْوَاعٍ مِنَ الطَّيِّبِ وَالزَّنَجَبِيلِ . مَعْرُوضَةً فِي أَقْدَاحٍ وَأَكْوَابٍ بَدِيعَةٍ وَبِأَيْدِي وَصَفَاءٍ يَسْرُونَ النَّاطِرِينَ . كل ذلك ليصرف المؤمنين المخلصين عن الخمر المحرمة بما أعد لهم في الآخرة من هذه الخمر المبهجة . وإن ما وصفه بها لآلاء ونعم سابعة جديدة بالشكر والثناء .

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

اختلف المفسرون في المراد بالزوجين قيل هما صنفان : معهود وغريب

لم يره أحد ولا سمع به . وقيل ضربان : رطب ويابس أو حلو وحامض ،

وعن ابن عباس ما فى الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، إلا أنه حلو ، وكأن كل ما فيها يستمد من حلاوة الطاعات ، وليس فيها شىء يستمد من مرارة السيئات كزقوم جهنم الفطيع ، الذى مرّ وصفه .

وربما كانت الآية تشير إلى قانون من قوانين الخلق فى تلك الحياة وأنه يسرى فى الحياة الأخرى ، وهو قانون التزاوج الذى يعم فى الكون وجميع مخلوقاته . ومرّ بنا قانون العدل والتوازن الذى رمز إليه الله بالميزان ، فكل ما فى الكون ينتظمه قانونان : قانون العدل وقانون التزاوج القائم فى تركيبه ، وكما أن قانون العدل يشمل الوجود الدنيوى والأخرى فكذلك قانون التزاوج .

وقد وقف القرآن إزاءه مراراً وتكراراً ، موضحاً أنه سر الحياة الزوجية وما تفضى إليه من الأبناء والمحافظة على الحياة الإنسانية ، إذ يقول الله تعالى فى سورة الروم : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ) فقد جعل للإنسان زوجته من نفسه ، بل لقد خلقهما ( مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ) حتى يكتمل بينهما التلاؤم ، وحتى يحس الإنسان أن زوجته ليست جزءاً من جسمه المادى بل هى جزء لا يتجزأ من جوهره الروحى ، وهو لذلك يسكن إليها ويجد راحتته وهناءته ومناعه من المودة والرحمة واللطف والرفقة . وبالمثل خلق الأنعام من الضأن والمعز والإبل والبقر كما جاء فى سورة الزمر : ( خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ) وقد فصلها فى سورة الأنعام ( مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ) وكذلك نظراؤه . وعلى نحو خلقه للأنعام والإنسان على أساس قانون التزاوج خلقه لجميع الحيوانات والكائنات والثمار والنباتات كما قال فى سورة الشعراء : ( أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

زَوْجٍ كَرِيمٍ) وقال في سورة الرعد : (وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ  
اِثْنَيْنِ) فاكهة وغير فاكهة بل لقد عمم الله هذا التزاوج في كل شيء في  
الكون وكل جنس من أجناس موجوداته ، فقال : في سورة الذاريات :  
(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) . وذهب جمهور المفسرين إلى أن الزوج  
كل ما يقترب بغيره مماثلاً له أو مضاداً ، مما جعلهم يقولون إن المراد  
بالتزوجين في الآية نوعان مختلفان كالذكر والأنثى والسماء والأرض والشمس  
والقمر والليل والنهار والنور والظلام والسهل والجبل والبر والبحر والصفى  
والشتاء والجن والإنس والخير والشر والإيمان والكفر والدنيا والآخرة والحق  
والباطل والسعادة والشقاء والحياة والموت والعز والذل والقوة والضعف والعلم  
والجهل والفرح والحزن والحرارة والبرودة والحلو والمر . وهو بُعد في التفسير .  
وقيل إن المراد بالتزاوج في الآية أن كل شيء في الوجود لا ينفك من تركيب  
أو قل من تزاوج بين صورة ومادة ، وهو أيضاً إغراق في البعد والتباس لتفسير  
التزاوج بما يقوله المتفلسفة عن المادة والصورة أو عن الجوهر والعرض . وليس  
هناك ما يضطرنا إلى مثل هذا التأويل أو مثل فهم المفسرين السابق ،  
فالله يكرر أن كل ما في العالم خُلِقَ أزواجاً مقترنة ، قانون قائم من قوانينه  
في خلق العالم وصنعه كما قال في سورة يس مصوراً عِظَمَ قدرته : (سُبْحَانَ  
الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)  
والآية صريحة في أن كل ما في الكون خُلِقَ أزواجاً : ما نعلمه أو نعرفه من  
الناس ومن النباتات والحيوانات وما لا نعلمه ولا نعرفه بطريق من طرق معرفتنا  
وعلمنا مما لم يجعل الله لنا طريقاً إلى العلم به ومعرفته سواء أكان في أرضنا  
وما يتصل بها من الجمادات والموجودات أو كان في كواكب أخرى مما

لا يحيط. به علم البشر. والنص في الآية على أن الفاكهة في الآخرة ستكون زوجين قد يشير كما أسلفنا إلى أن قانون التزاوج الدنيوي في الخلق سيظل سارياً في الآخرة. وقد يكون في هذا القانون ما يشير إلى أن الله وحده المتصف بالوحدانية والفردانية فلا شريك له ولا مماثل، إنه الوتر الفرد، ولا يوجد في الوجود فرد سواه. فهو المتفرد بالأحادية، ولا شيء يماثله في أحديته بوجه من الوجوه، إذ كل شيء، سواه زوج وكُفء لشيء آخر، كل شيء خلق زوجاً ومماثلاً لنظير وقرين. وكأما سيظل هذا القانون سارياً في الآخرة على الفاكهة وغير الفاكهة، حتى يظل للثقلين أنسهما بالوجود المألوف، وهي آلاء ونعم مزدوجة حرية بكل شكر وكل امتنان.

(مُتَكَيِّبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّاتٍ دَانٍ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

نصوّر الآية فرش أهل الجنتين وما تغرق فيه من النعيم وأسبابه. والفرش تشمل الأسرة والمنصات والمجالس كما تشمل الوسائد والبسط. وكل ما يجلس عليه الشخص أو يضطجع وينام من الطنافس، وهي طنافس بطائنها من إستبرق وهو ما غلظ. من الديباج أو الحرير، أما ظواهرها فقيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إنها «نور يتلألأ» وقيل إنها من سندس وهو الحرير الرقيق. وصوّرت سورة الواقعة أسيرتهم فقالت إنهم: (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَكَبِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) والموضونة المنسوجة بالذهب المشبكة بالدرّ والياقوت والزبرجد، وهم يتكئون عليها ويجلسون جلوس الراحة والمتعة متقابلين متوادين كل منهم يقبل على صاحبه في حنو وود ومعجة، لا في تناكر وتباغض وتنافر كأهل النار. وتأخذ

الفُرْشُ فِي سُورَةِ الْغَاشِيَةِ هَذِهِ الصُّورَةُ : (فِيهَا سُورٌ مَرْفُوعَةٌ . . وَنَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ) . وَارْتِفَاعُ الْأَسْرَةِ إِذَا حَقِيقٌ ، فَهِيَ عَالِيَةٌ فِي الْهَوَاءِ عَلَى قَوَائِمٍ طَوَالٍ ، وَإِذَا مَجَازِيٌّ بِمَعْنَى أَنَّهَا رَفِيعَةٌ الْقَدْرُ لِحَسْنِهَا وَلَا كَلَّتْ بِهِ مِنَ الزَّبْرِجْدِ وَالْجَوَاهِرِ . وَالنَّمَارِقُ الْوَسَائِدُ الْمَسْمَاةُ فِي عَامِيَّتِنَا بِاسْمِ « الْمَسَانِدِ وَالْمَخْدَاتِ » وَهِيَ مَصْفُوفَةٌ فَوْقَ الْمَجَالِسِ وَالْأَسْرَةِ لِلاتِّكَاءِ عَلَيْهَا وَالِاسْتِنَادِ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ . وَالزَّرَائِبُ الْأَبْسَطَةُ ، وَهِيَ (مَبْثُوثَةٌ) أَوْ مَنْشُورَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَفَوْقَ الْمَجَالِسِ لِلزَّيْنَةِ وَإِمْتَاعِ النَّفْسِ وَالنَّظَرِ . وَلَمْ تَعْرَضِ السُّورَةُ لِثِيَابِ جَنَّتَيْ عَدْنٍ وَالنَّعِيمِ وَعَرَضَتْ لَهَا سُورُ الْقُرْآنِ فِي آيَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ ، مِنْ ذَلِكَ سُورَةُ فَاطِرٍ إِذْ قَالَتْ : (وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) وَسُورَةُ الْكَهْفِ إِذْ قَالَتْ : (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرَاءَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) فَثِيَابُهُمْ مِنْ حَرِيرٍ وَمِنْ إِسْتَبْرَقٍ مَنْسُوجٍ بِالذَّهَبِ ، وَهِيَ خَضْرَاءُ كَخَضْرَى الزَّرُوعِ ، خَضْرَاءُ تَأْخُذُ بِالْأَلْبَابِ . وَلَمْ تَعْرَضِ السُّورَةُ لِحَلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ وَعَرَضَتْ لَهَا سُورُ عِدَّةٍ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَاطِرٍ : (جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) فَهَمَّ يَتَزَيَّنُونَ بِأَسَاوِرِ الذَّهَبِ وَبِاللُّؤْلُؤِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْحَلِيِّ وَالزَّيْنَةِ مِمَّا يَمَلَأُ نَفْسَهُمْ بِالْبَهْجَةِ ، وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : (وَحَلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ) وَلَا تَعَارَضَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ ، فَهَمَّ إِذَا يَجْمَعُونَ بَيْنَ أَسَاوِرِ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤٍ وَفِضَّةٍ ، وَإِذَا يَعَاقِبُونَ بَيْنَهَا ، أَوْ يَخْتَارُونَ مِنْهَا مَا يَشَاءُونَ ، وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَ شَخْصٍ بِيَاضُ الْفِضَّةِ فَوْقَ صَفْرَةِ الذَّهَبِ وَبِيَاضُ اللَّؤْلُؤِ وَبَرِيقُهُ وَلَمَعَانُهُ . وَتَصَوَّرَ بَقِيَّةَ الْآيَةِ (جَنَّاتِ الْجَنَّتَيْنِ) وَهُوَ مَا يُجَنَّى مِنْ ثَمَارِهَا الطَّيْبَةِ بِأَنَّهُ (دَانٍ) فَهُوَ فِي مَتَنَاوِلِ أَيْدِيهِمْ ، قَرِيبٌ مِنْهُمْ بِحَيْثُ يَقْطِفُونَ مِنْهُ كَلِمًا شَاءُوا قَائِمِينَ أَوْ جَالِسِينَ أَوْ مُضْطَجِعِينَ لَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ بَعْدُ وَلَا أَشْوَاكُ . وَقِيلَ إِنَّ الْأَشْجَارَ تَدْنُو لِلْأَبْرَارِ كَمَا يَأْخُذُوا مِنْ ثَمَارِهَا مَا يَرِيدُونَ ، وَقِيلَ إِنَّ كُلَّ مَا

يطلبونه يجدونه فوقها فيتناولونه . ولم تذكر السورة من طعام أهل الجنة سوى الثمار والفواكه ، وفي سورة الطور في وصف نعيم أهل الجنة : ( وَأَمْدُدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ) فمن بين النعم التي يمدُّ الله بها أهل الجنة لَحْمٌ من كل ما يشتهون من طير وغير طير . وفي سورة الزخرف : ( يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) والصحاف آنية الطعام ، والأكواب آنية الشراب ، ويُروى أن الرسول عليه السلام : « قال إن أهل الجنة يأكلون فيها ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال : رَشِحَ كرشح المسك يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد » . وفي بعض كتب التفسير أن سياكن الجنة يُغْدَى عليه ويراح بسبعين ألف صفحة من ذهب ليس منها صفحة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله ، وشهوته إلى الطعام في آخرها كشهوته في أولها لو نزل به جميع أهل الأرض لوسَّع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أذى شيئاً . وفيها أيضاً أنه يُغْدَى عليه ويرأح بثلاثمائة صفحة من ذهب في كل صفحة لون ليس في الأخرى وإنه ليلدُّ أوله كما يلدُّ آخره ، ومن الأشربة ثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر ، وإنه ليلدُّ أوله كما يلدُّ آخره ، وإنه ليقول : ربُّ لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندي شيء . والمبالغة واضحة في التصويرين ، ويحسن أن نتوقف عند ما ذكره الله جل شأنه من وصف نعيم الجنة ، وألا نتسع إلا بمقدار ما يصور ذلك الحديث النبوي الصحيح . ولا ريب في أنه أعلى وأرفع من كل نعيم تنصوره في الدنيا ، ولكن ينبغي أن لانفسح لأنفسنا في تخيله وتصوره فنونه وألوانه . على كل حال هو نعيم فوق كل ما نتصوّر وكل ما نتخيل ، وإنه

لجدير أن يدفع الكفار الآثمين إلى تدبر موقفهم وتلافي تقصيرهم واللجوء إلى رحاب ربهم ودينه الحنيف ، كما يدفع الأبرار إلى أن يزدادوا طاعة وتقوى ونسكاً وعبادة . وكل ذلك نعمٌ وآلاءٌ متعاقبة متوالية تستحق كل شكران وكل امتنان وكل عرفان . .

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ \*  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

فيهن أي في الجنيتين السالفتين وما أُعِدَّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل فيهن أي في الفُرُش التي بطاقتها من إستبرق . و (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) حابساتٌ عيونهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ، فهن يَغْضُضْنَ من أبصارهن رامياتٍ إلى الأرض لا يَرَفَعْنَها إلا إلى أزواجهن عفافاً وطهرًا ، كما قال تعالى في سورة النساء عن الجنة ونعيم أهلها : ( لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ) من كل أذى جسمي ونفسي أو من كل إثم وذنب أو من كل أدران الدنيا وأخلاقها السيئة ، فهن طاهراتٌ عفيفات يُقبلن على أزواجهن وكلهن مودة وحنوٌ وحب . وفي بعض كتب التفسير أن الواحدة منهن تقول لزوجها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ولا في الجنة شيئاً أحب إلي منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك ، وقيل إنها تقول له : أنت حبي وأنا حبك ، وأنا الخالدة التي لا أموت ، وأنا الناعمة التي لا أبؤس ، وأنا الراضية التي لا أسخط ، وأنا المقيمة التي لا أظعن . وفي سورة ص : ( وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ) والأتراب المتساويات في السن إما مع أنفسهن أو مع أزواجهن ، وقيل أتراب ليس بينهن تحاسد ولا تباغض وإنما بينهن الحب والمودة ، سورة الرحمن

والتفسير الأول أقرب . ويصفهن القرآن بأنهن حور ، والحوراء شديدة  
بياض العين وسوادها ، وفي سورة الصافات : ( وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ  
عَيْنٌ كَانَهُنَّ بَيِّضٌ مَكْنُونٌ ) والعَيْنُ جمع عَيْنَاء وهي الحوراء أو النَّجْلَاء واسعة  
العين حسناء النظر . والبيض اللؤلؤ ، والمكنون المستور في الصدف المصون  
الذي لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين ولم يُدْنَسه أي تواب أو غبار ، وكل  
ذلك تصوير لجمال هؤلاء العفيفات وأن نعم الأزواج بهن مضاعفة . طهارة  
أثواب ونقاء نفوس وجمال صور وحب صادق . وقيل إن وصفهن بأنهن  
( قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ) . إنما يعني جمالهن وأنهن يَقْصِرْنَ أعين أزواجهن عليهن  
فلا ينظرون إلى غيرهن ، إذ يشغلنهم عن كل من حولهن ويستأثرن بهم  
ولا يدعن لهم سبيلاً إلى الالتفات إلى سواهن ، فعيونهم دائماً معلقة بهن ،  
ضاربة من حولهن نطاقاً من صفو الحب وهناءته . ومعنى الكلمة الأول أقرب  
وأوضح . و ( لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ ) لم يفضضهن ولم يمسهن أي لم يمَسَ الإنسيات  
أحد من الإنس ولا الجنيات أحدٌ من الجن في تلك النشأة الثانية أو في الدار  
الآخرة . ويدل ظاهر الآية علي أن الجن يدخلون الجنة ويكون لهم فيها جنيات  
من جنسهن قرينات لهم كقرينات الإنس . وقيل إن الله يخلق في الجنة  
حوراً للإنس يشاكلنهم يقال لهن إنسيات وحوراً للجن يشاكلنهم يقال  
لهن جنيات . وقيل يجوز أن تكون الحور كلهن جنساً واحداً أو نوعاً واحداً ،  
وهو نوع أو جنس مختلف في نشأته وطبيعته عن نساء الدنيا ، ويُعْطَى  
منهن الجن . وقيل بل ( قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ) هم نساء الدنيا أنشئن نشأة ثانية  
كما أنشئ الرجال . وواضح أن الآية تحمل إلى الثقلين نعماً وآلاء جديدة  
تصور الدرجة الرفيعة التي أعدها الله للأبرار المقربين مما ينبغي أن

يتلقوه بشكر اللسان والجنان وأن يخلصوا وجوههم وقلوبهم لرب الآلاء والأفضال.

( كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

تصوير لقاصرات الطَّرفِ بأنهن كالياقوت احمراراً والمرجان ، وهو اللؤلؤ ، صفاءً والتماعاً . وفي بعض كتب التفسير سيول من المبالغات كأن يقال لو اطلعت امرأةٌ منهن في الجنة إلى الأرض الملائت ما بينهما رائحة عطرة ، ولو أن شعرة من شعر رأسها وقعت في الأرض لأشبه ضوء الشمس بالقياس إلى نورها سواداً في نور ، وقالوا لو أن لؤلؤة من اللؤلؤ المركوم عليها سقطت إلى الدنيا لأضاءت ما بين المشرق والمغرب . وتكاثرت مثل هذا التصوير حتى قيل إنهن يكثرن من الخلاخل والأساور وعقود الجواهر كثرة مفرطة ، بل قيل إنهن يُزَيَّنَّ نعالهنَّ باللائئ ، وكل واحدة منهن تلبس سبعين حُلَّةً ، لكل حُلَّةٍ لونها البهيج ، وتتطَّيبُ بسبعين لوناً من الطَّيبِ لبس منها لونٌ يماثل لوناً ، ولكل منهن سبعون سريراً من ياقوتٍ أحمر قد نُسِجَتْ بالذهب والدرِّرِ ، وعلى كل سرير سبعون فراشاً بطائنها من إِسْتَبْرَقٍ ومعها سبعون أريكةً . ولكل واحدة سبعون وصيفةً ، بيد كل وصيفةٍ صحفتان من ذهب في كل منهما لون من طعام ، تجد لآخر لقمة منه لذةً لا تجده لأولاها ، ولزوجها سريراً من ياقوتٍ أحمر عليه سواران من ذهب وقد وُشِّحَ باللائئ والدرر . وإنما سقنا ذلك كله لندل على مدى المبالغات التي اقترنت بتصوير حور الجنان . وينبغي أن نقف في تصوُّرهن عند القرآن الكريم والحديث الصحيح ، وألا نطلق للخيال العنان ، لأن كل تلك مشاهد غيبية ، تدخل في ملكوت النشأة الثانية الإلهية مما تقصر العقول عن إدراكه وتعجز الأفهام عن كشف أسراره ، فيحسن ألا نتجاوز ما تنصُّ عليه آي

الذكر الحكيم وما صحَّ من الأحاديث التي لا يرقُّ إليها شك . وقد صورهن الله هنا عفيفاتٍ طاهراتٍ محبَّاتٍ لأزواجهن مخلصاتٍ على حظ. عظيم من الحسن والجمال حتى ليشبهن الياقوت في لطفه وصفائه والمرجان أو اللؤلؤ في بياضه وبهائه ، وإنما لنعم مضاعفة تستوجب من الثقلين الشكر والثناء .

( هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

لكلمة الإحسان معنيان : معنى الإتيان في العمل ومعنى الإنعام على الغير ، وقد استُخدمت في الآية بالمعنيين جميعاً ، فكلمة الإحسان الأولى يُراد بها إحسانُ الإنسان في عمله وامتناله لطاعات ربه ، وكلمة الإحسان الثانية يُراد بها إحسان الله على المتقين المؤمنين بنعيم الجنات والرضوان . وقيل بل الإحسان الأول التوحيد وكلمة الشهادة لما رُوِيَ من أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآية ثم قال : « يقول الله هل جزاء من أنعمتُ عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنَّتي وَحظيرة قُدسي » . وذهب كثير من المفسرين ، منهم البيضاوي ، إلى أن الإحسان الأول الإحسان في العمل عامة ، وكان الرسول عليه السلام نصَّ من هذا الإحسان على أعظم أصنافه وهو الإيمان بوحدانية الله اعتقاداً وعملاً ، وفي الحديث عن أبي ذرٍّ أنه قال : « يا رسول الله دُلَّني على عمل يُدخلني الجنة ويباعدني عن النار » فقال عليه السلام : « إذا عملتَ سَيِّئَةً فاعمل بجانبها حسنة فإنها بعشر أمثالها » ، فقال : « يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات ؟ » فقال عليه السلام : « هي أحسنُ الحسنات » إذ هي الأصلُ الأول في الإيمان ونوره وهداه . ومن إحسان المؤمن امتناله لجميع تعاليم الدين الخفيف والنهوض بعباداته على الوجه الأكمل ، كما جاء

في الحديث النبوي : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والإحسان بهذا المعنى يتطلب أن يستشعر المؤمن دائماً أنه بحضرة ربه يراقبه في كل صغيرة وكبيرة في السرِّ وفي العلن لا تخفى عليه منه خافية . وهو دائماً يصفى له نفسه بالتوحيد والإخلاص الصادق والخشية والإنابة والعبادة حق العبادة . ويتردد في القرآن وصف المؤمنين الذين عملوا الصالحات بأنهم محسنون كما في آية الزمر : ( أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ) وآية المرسلات : ( كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ) . ومن الإحسان المتعلق بالإنسان الإنفاق على الفقراء وذوي الحاجة ، وقد نوه القرآن به وبأجره وثوابه عند الله تنويهاً عظيماً ، إذ سباه ( قَرْضاً حَسَناً ) وتعهد عهداً عظيماً - وَمَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ مِنْ اللَّهِ - أن يضاعف ثوابه مراراً كثيرة ، يقول في سورة البقرة : ( مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً ) . بل لقد تعهد لمن ينفق ماله في جهاد أعداء دينه وحرهم أن يضاعف لهم ما ينفقونه سبعمائة ضعف ، ومثل المنفق في هذا الجهاد بزراع زرع في الأرض حبة فإذا هي تُنبت سبع سنابل عجيبة في كل سنبله مائة حبة كما جاء في سورة البقرة : ( مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) وهو إنعام من الله مضاعف يلقي به إنعام المؤمن بل إحساناً فوق كل إحسان . وقد سمى الله كل ما يقدمه المؤمن في دنياه من عمل صالح حسنةً أي نعمة وثواباً يُثابُّ عليه في أخراه كما قال في سورة النمل : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ) ، بل لقد وعد بأن تضاعف الحسنة عشرة أضعاف

كما قال في سورة الأنعام : ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ) ويقول في سورة يونس : ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ) ، فلهم ثوابهم وهو ثواب مضاعف إذ يجدون كل ما يشاءون مما تشتهيهم أنفسهم ويلذ أعينهم ، ولدى الله فوق ذلك (زيادة) من النعم لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها . وهذا معناه أن كل ما يتصوره المؤمن من أنواع الإحسان الإلهي والإنعام الرباني الذي وعده الله به في الذكر الحكيم ورائه في الآخرة أنواع لا تُحصى من نعم الجنان والرضوان . والآية توضح تفضل الله على أصحاب الجنتين السابقتين : جنتي عدن والنعيم بأنه إحسان يستحقونه على ما قدمت أيديهم من إحسان ، وكأنه جزاء عادل لأعمالهم ، وهو فوق العدل ، لأنه زائد عليه إنعاماً عظيماً خليفاً بكل شكر وثناء على رب العالمين .

( وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ \* مُدْهَامَتَانِ \*  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

مدهامتان من الدهمة ، وهي سواد الليل ، ويعبر بها عن الخضرة التامة للزروع والرياض كأنها من شدة خضرتها سواد اللون . وكلمة ( وَمِنْ دُونِهِمَا ) أى ومن دون الجنتين السالفتين تفيد أن هاتين الجنتين وهما جنة الفردوس وجنة المأوى أقلُّ منهما في الدرجة والفضل . ومن يقرن صفاتهما في الآيات بعدهما بعضها إلى بعض يلاحظ. ذلك في وضوح ، إذ قال الله عزه وجل في هاتين ( مُدْهَامَتَانِ ) وفي الأوليين ( ذَوَاتَا أَفْتَانِ ) فوصفهما بشدة خضرتهما ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، وقد يكون في ذلك إشارة إلى كثرة الثمار والفواكه فيهما . ووصف هاتين بأنهما ذواتا عينين نضاختين

ووصف الأولين بأن فيهما عينين تجريان . والنَّضْحُ دون الجرى لأنه فَوَارِنُ الماءِ فَحَسَبُ . وقال : ( فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ) ولم يقل : ( مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ) كما قال في الأولين . وقال إن فُرْشَهما العبقريُّ وهو الوَشِيُّ ، في حين قال إن فُرْشَ الأولين الإِسْتَبْرَقُ وهو الديباج . ووصف الحور هنا بأنهن ( خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ) ووصفهما في الأولين بقوله : ( كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ) وهو تشبيهٌ يعطيها درجة عالية من الحسن والجمال . وكل هذه الفروق بين الجنة الأولى والجنة الآخرين لاحظها القدماء ، مما جعلهم يظنون أن الجنة الأولى جنة عَدْنٌ وجنة النعيم وأن الجنة الآخرين جنة الفردوس وجنة المآوى . وقالوا إن الأولين من ذهبٍ للمقربين والآخرين من فضةٍ لأصحاب اليمين . وذكروا أن الله بنى جَنَّةَ الفردوسِ لِبَنَةِ من ذهبٍ خالصٍ ولبِنَةٍ من مسكٍ مصفىٍ وعرسَ فيها من طيبِ الفاكهة وطيبِ الريحانِ وفَجَّرَ فيها أنهارها الأربعة : فنهر من ماء ونهر من لبن ونهر من خمر ونهر من عسل . وقيل : بل بُنيت لِبَنَةٍ من ذهبٍ ولبِنَةٍ من فضةٍ وجُعِلَ خلالها المسكُ الفائحُ وعرسَ فيها من جَيِّدِ الفاكهة وجَيِّدِ الريحانِ . وعن ابن عباس أن جنة المآوى بُنيتُ من ذهبٍ ، وكأنه لا فارق بين هاتين الجنةين والجنةين السابقتين في البناء ومادته ، إنما الفارق في الصفات التالية لهما ، مما جعل كثرة المفسرين يقولون إن الأولين للمقربين والآخرين لأصحاب اليمين ، أخذًا من تقسيم الله جلَّ شأنه للناس يوم القيامة في سورة الواقعة ، إذ جعلهم أصنافاً ثلاثة : أصحاب المَشَامَةِ وهم الكفار العاصون ، وأصحاب المَيْمَنَةِ وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وهم أصحاب المنزلة السنية ، أو الذين صحائفهم بأيامهم ، أو الذين يكونون يوم المعاد على يمين

العرش فيأخذون طريقهم إلى الجنة . ثم المقرَّبون السابقون إلى النَّسك وأعمال البر والخير . وصوَّر الله في السورة ثواب الفريقين مصرحاً بأنَّ المقرَّبين يدخلون في جنات النعيم وأنهم يكونون فيها على أسرة ، وُصفت بأنَّها منسوجة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ويطوف عليهم وشفاء بكتوس الخمر المصنوع وبصحاف الفاكهة والطعام وترافقهم حور كأمثال اللؤلؤ المكنون . ويمكن أن يقال إن نعيم أصحاب الميمنة المرادين بهاتين الجنتين الأخرين وُصف في سورة الواقعة ، كما وُصف نعيم المقرَّبين فيها ، وصفاً يضيف بعض التفاصيل إلى ما ذُكر هنا من نعيم ، إذ يقول جَلَّ شأنه : ( وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ) والسدر شجر النبق ، ومَخْضُودٌ خضد الله شوكه ونزعه منه . وفسح بعض المفسرين لمبالغات مفرطة ، فقالوا إنه جعل مكان كل شوكه فيه ثمرة ، وكل ثمرة تنفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ليس فيها لون يشبه اللون الآخر . وقالوا ثمرة كبير في حجم القيلال وورقه مثل آذان النيلة . وكل ذلك مما استأثر الله بحقيقة أمره . والطلح شجر الموز ، وقبل ثمرة أحلى من العسل ، والمنضود المرصوص والمتراكب ، وللطلح أوراق كبار وظل بارد ، في حين أن السدر له أزهار كثيرة طيبة الرائحة ، وكأنه يتخذ للطعام والنزهة والزينة . ( وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ ) دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس لأنه لا شمس هناك بل ظل مستمر . وفي الحديث النبوي : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو مائة سنة - هي شجرة الخلد » وهو حديث مقطوع بصحته عند أئمة الحديث لتعدد طرقه وقوة

أسانيده وثقة رجاله . وعن ابن عباس قال : « الظل الممدود شجرة في الجنة على ساقٍ ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيها مائة عام ، فيخرج إليها أهل الجنة : أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون في ظلها بأصلها ويشتهون لهو الحياة ، فيرسل الله ريحاً من الجنة ، فتحرك تلك المشجرة بكل لهو في الدنيا » . وفي بعض الآثار أن أهل الجنة مُرَدُّ حَسَنُوا الوجوه في سن الثلاثين لا يهرمون ، وأن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداها فتطهر أجوافهم كما قال تعالى في سورة الإنسان : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أجسادهم وبشرتهم أو آبشارهم . ويقول خزنة الجنة كما جاء في سورة الزمر : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) فيدخلونها وعلى وجوههم نضرة النعيم ، ويظلون بها هانئين لا تتغير آبشارهم ولا تتشعث أشعارهم . وقيل إنهم يذهبون إلى شجرة في الجنة فيُكَسَوْنَ منها فلا تبلى ثيابهم ولا يَفْنَى شبابهم . (وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ) يُسكب لهم ويصب كلما أرادوا وأينما شاءوا بلا تعب ولا نصب ، فهو مَدُّ أيديهم يسيل على الأرض في غير انقطاع ، فيأخذون منه حاجتهم ويتمتعون به ويمنظره حين يداعب حصباء الجنة من الدر والياقوت . (وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ) فهي لا تنقطع كفاكه الدنيا في بعض الأوقات ، ولا تمتنع عن متناولها من الأبرار بوجه من الوجوه كبعد على الفصن أو شوك من دونها ونحو ذلك ، بل هي دانية تُقَطَفُ في سهولة ويسر . وفي الذكر الحكيم آيات كثيرة تصور نعيم الجنات دون تقييدها بجنة معينة ، مما قد يدل على أنه نعيم مشترك بين أهل الجنان جميعاً بين المقربين وأصحاب اليمين ، على نحو ما جاء في سررة

الزُّخْرُفُ : (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبِرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ). وواضح أن المؤمنين أصحاب هذا النعيم العظيم لم يخصصوا بأنهم من السابقين المقربين ، إنما هم مسلمون فحسب ، وبالمثل لم تخصص الجنة ، فهي ليست جنة عدن ولا جنة النعيم ولا جنة الفردوس ولا جنة المأوى ، بل هي الجنة عامة بحيث تشمل كل تلك الجنات ، فجميعها يطوف فيها الوصفاء والولدان بصحاف الطعام وأكواب الشراب وآنية الفواكه من كل ما تشتهيه الأنفس ومن كل ما يَلذُّ الأعين . ويقول جَلَّ ذكره في سورة الطور :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِمُ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ). وعن ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم تلا الآية . وفي رواية أخرى عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء ، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء ، فالآباء داخلون في مدلول الذرية كقوله تعالى عن قوم نوح : (وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ) . وعنه أيضاً يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول : يا رب إني عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » . وكل ذلك رحمة ولطف من الذات

العلية حتى يكون نعيم أهل الجنة كاملاً بسعادتهم في أنفسهم وفي أهلهم ،  
وطبيعي أن يلحق بهم أطفالهم الذين ماتوا في المهدي وقبل سن التكليف .  
( وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ) ما نقصناهم من ثواب أعمالهم شيئاً  
بهذا الصنيع ، فإنه تفضل وإنعام ، وقانون عدالة عام ( كُلُّ امْرَأٍ بِمَا  
كَسَبَتْ رَهِينٌ ) فلا يُظَلَّمُ أحدٌ شيئاً ، بل يُضاف إلى ثوابه ويُزاد إعزازاً  
وتكريماً وإنعاماً من وليّ النعم . ( وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَكَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ )  
رَفَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ من كل الأنواع . وروى بعض المفسرين  
أن المؤمن إذا نزع ثمرة من ثمار الجنة خلفتها في مكانها أخرى  
وتكثرت المبالغات وترفدها سيول من الإسرائيليات فمن قائل إن  
طير الجنة تأكل من ثمرات الجنة وتشرب من أنهارها ، فإذا اشتهى المؤمن منها  
شيئاً جاءه حتى يقع بين يديه فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص  
منه شيء . وهي مبالغة واضحة في التصور ومثلها ما قيل من أن في الجنة طيراً فيه  
سبعون ألف ريشة ، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ، فينتفض ،  
فيخرج من كل ريشة لونٌ أشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأعذب من  
الشهد ليس منها لون يشبه صاحبه ، ثم يطير . وكل ذلك مما استأثر الله  
بمعرفة حقيقته . ( يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ) يتداول فيها  
المؤمن وزوجته وذريته كأس الخمر الصافية الهنيئة ولا يجري بينهم لغو ولا  
إثم في الحديث كما يجري في مجالس الخمر الدنيوية ، بل مسرة وفرحة  
دائمة . وقال جلّ وعزّ في آية سورة الطور السالفة . ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ  
لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ) وقال في سورة الإنسان : ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ  
مُخَلَّدُونَ ) يطوفون عليهم بصحاف الطعام وأكواب الشراب الذهبية والفضية .

وقال بعض المفسرين مطلقين لخيالهم العنان : يطوف على أدنهم في الجنة منزلة سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب يُغدى عليه بها ، في كُلِّ واحدة منها لون ليس في صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً . وكما يُغدى عليه بذلك يُراح بمثله في وقت العشي . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمئة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب فيها لون من الطعام ليس في صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً . وهي مبالغات مفرطة . وعلى نحو ما اقترن نعيم الجنة عامة بما لَدَّ وطاب من الأطعمة والأشربة اقترن بما يَلدُّ ويُمتنع من الفُرشِ النفيسة والملابس الحريرية وزينة الحُلَى . ومعروف أن الإسلام يحرم كثيراً من هذا النعيم في الحياة الدنيا ، فهو يحرم لبس الحرير على المسلمين كما يحرم عليهم الأكل والشراب في أواني الذهب والفضة ، وكأنه عوضهم عن ذلك في الآخرة ، وفي الحديث النبوي : « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافهما فإنها لهم (للكفار) في الدنيا ولكم في الآخرة » .

ويلاحظ أن كل ما جاء في آي الذكر الحكيم من النعيم الأخرى وما علق به المفسرون من تفسير مشترك بصفة عامة بين الجنات الأربع : جنة الفردوس وجنة المأوى وجنة عدن وجنة النعيم . ويبدو أن كل ما بين نعيم الجنتين الأوليين والأخريين من خلاف إنما هو في الدرجة لا في النوع ، كاختلاف عيني الجنتين الأوليين من عيني الجنتين الأخريين ، فالعينان الأوليان نضاختان أو فوارتان وسائلتان ، والعينان الأخريان جاريتان ، ووراء هذه العيون أربعة أنهارٍ تشترك فيها الجنان

جميعاً على نحو ما سنوضح ذلك عما قليل . ولا بأس من أن نذكر هنا وصف مجاهد تلميذ ابن عباس للجنة وطبيعتها المكانية ، إذ قال : « أرض الجنة من فضة ، وترابها الزعفران ، وطبيها مسك أذفر (فائح) وأصول شجرها ذهب وفضة وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والتمر تحت ذلك كله . فمن أكل منه قائماً لم يؤذِهِ ، ومن أكل منه قاعداً لم يؤذِهِ ، ومن أكل منه مضطجماً لم يؤذِهِ » وأغفل مجاهد في تصوره أجزاءً من تلك الطبيعة ، إذ لم يذكر العيون والأنهار الجارية والظلال الممتدة والطير الشاذى وغير ذلك من النعيم العظيم الذى أشار إليه الذكر الحكيم . وقد كرّر مراراً أنه نعيم خالد لا يفنى أبداً كما لا يفنى أهل الجنة ولا يموتون ولا يهرمون ، بل دائماً شباب تتلألأ فيه نضرة النعيم ، وداًماً يقظة هائثة لا يقطعها نوم كما لا يقطعها موت . وعن جابر سئل الرسول صلى الله عليه وسلم أينام أهل الجنة ؟ فقال : « النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون » فقد انتهى عالمهم الأول ، عالم الفساد الذى يتعب فيه الإنسان وينصب ولا يشفيه من نصبه وتعبه سوى النوم . ينتهى هذا العالم بكل ما يتصل به من نوم وغير نوم ، ويستأنف كل واحد من الثقلين عالماً آخر ، له حياته الجديدة فيه ، وله هذا النعيم السرمدى الذى لا يفنى ولا يبلى والذى يفيض عليه أبداً بالابتهاج والسرور ، وإنه لحرى بكل من وُصف له هذا الجزاء وما أعدّه الله من الثواب العظيم لأهل طاعته أن يسارع إلى عبادته مثنياً على آلائه شاكراً لنعمائه .

( فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ « فَبَيِّئِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

نَضَّاحَتَانِ فَوَّارَتَانِ بِأَلْيَاءِ ، وَأَصْلُ النَّضْحِ الرَّشُّ بِأَلْيَاءِ كَمَا يَنْضَخُ رَشُّ

المطر ، وعن ابن عباس تَنْصَخَانِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ  
وَالْكَافُورِ . وَدَائِمًا تُذَكَّرُ مَعَ الْجَنَّةِ وَبَسَاتِينِهَا مِيَاهُ الْعَيْونِ ، وَكُرِّرَ الْقُرْآنُ كَثِيرًا  
ذَكَرَ مِيَاهُ الْأَنْهَارِ وَأَنَّهَا تَجْرِي فِي جَمِيعِ الْجَنَاتِ أَوْ فِي كُلِّ جَنَّةٍ كَمَا فِي آيَةِ  
سُورَةِ الْحَجِّ : ( إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَكُلُّوْا وَلبَّاسُهُمْ  
فِيهَا حَرِيرٌ ) فجنات المؤمنين عامة تجرى فيها مياه الأنهار مداعبة حصباءها  
من الجواهر والياقوت فتسر الناظرين مسرة لا حدود لها بمشهدها ومشهد ما  
حولها من الأشجار والأزهار والرياحين والغصون المتدلية بالثمار والطيور الصادح  
بالغناء ، مما يصفى على الجنات جمالاً فاتناً يأخذ بأزمة القلوب . ولاحظ .  
ذلك الزمخشري فقال في كشفه : « لولا أن الماء الجارى من النعمة واللذة  
الكبرى وأن الجنان والرياض وإن كانت آتق شيء وأحسنه لا تروق النواظر  
ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجرى فيها الماء - وإلا  
كان الأئس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً وكانت كئائب لا روح فيها  
وصور لا حياة لها - لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية  
من تحتها مسوقين على قران واحد ، كالشيثين لا بُدَّ لأحدهما من صاحبه » .  
وصور الله أنهار الجنة العظيمة ، التي تجرى من تحتها قائلًا في سورة محمد :  
( مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ  
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ  
مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ) . والمثل الصفة والنعمة ،  
والآية بيان لأنهار الجنة وأنها أربعة أنواع : أنهار من (ماء) عذب (غير  
آسن) أو بعبارة أخرى غير متغير الطعم والرائحة . ( وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ

يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ) ولم تدخله حموضة كما يحدث لألبان الدنيا ، لبن لم يُجَلَّبَ من ضَرَعٍ ولم يخرج من بين فَرْثٍ ودمٍ . (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ) خمر ليس فيها طعم كريبه ولا رائحة مؤذية ، لم تدنِّسها الأرجل والأيدي كخمر الدنيا ، بل هي لذيدة لذة لا توصف ، وكما نعتت في الذكر الحكيم على نحو ما مرَّ بنا في حديثنا عن عَيْنى الجنيتين الأوليين الجاريتين لا تسبب مرضاً ولا صداعاً ولا خماراً وتخلِّيراً يذهب بالعقول ، خمر تجرى في أنهار خالية من كل آفات الخمر الدنيوية حاملة لِلذَّاتِ عجيبة . (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) مما في عسل النحل من الشَّمْعِ والقَدَى والشوائب ، عَسَلٌ يُسْتَتَابُ وَيُسْتَلَدُّ لخلوه من كل عيب وكل أذى ويُدنِّت الأنهار بأنهار الماء لأنه لا يُسْتَغْنَى عنه في دنيانا ولأن حياتنا وحياة الحيوان وحياة الزروع والنباتات في الأرض لا تقوم بدون ماء ، وقد قال الله تعالى : في سورة الأنبياء : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) ، وكرَّر كثيراً أنه يُحْيِي به الأرض المُجْدِبَة فتخرج نباتاتها وأشجارها وثمارها كما يُحْيِي الدواب والآناسيَّ وكأنه جزء لا يتجزأ من الحياة ، ولذلك كان طبيعياً أن تتقدم أنهاره سواها من الأنهار . وتبعثها أنهار اللبن لأنه يجرى مجرى الطعام ، فهو شراب وطعام في آن واحد ، شراب سائغ للشاربين لذيد للطاعمين . وتلتها أنهار الخمر ، لأن الخمر إنما تكون بعد الطعام والارتواء ، إذ يشتاقيها شاربها ويتشوّف إليها . ثم تأتي أنهار العسل بشرابها المختلف الألوان في دنيانا باختلاف ما تأكله النحل من النباتات والثمار ، وليس ذلك فحسب ، بل هو في دنيانا يُسْتَحَدَّمُ ترياقاً وشفاءً للمرضى ينجع في مرضهم ، ويُبْرِئهم منه ، ومما قد يعرض لهم من بعض أطعمتهم وأشربتهم ، ولذلك جاءت

أنهاره في الآية متأخرة . وعن أنس بن مالك قال : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى في أخاديد في الأرض (أى في مجار مشقوقة كمجارى الأنهار الدنيوية) والله إنها لتجرى سائحةً على وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر (الفائح) . وفي تفسير الألوسي : « قيل إن هذه الأنهار تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ في الدنيا ، بالتخلية عما ينقصها وينغصها ، والتخلية بما يوجب غزارتها ودوامها » . وسواء أكانت الأنهار والعيون والمياه تمثيلاً أم تحقيقاً فلا شك أنها تعبر عن نعيم رائع في الحياة الآخرة ، وهو وكل ما يصوره أو يمثله آلاء ناطقة بأفضال رب العالمين وأنه يستحق من الثقلين كل خضوع وكل طاعة وكل شكر وكل حمد وكل ثناء .

( فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

اختلف المفسرون هل عطف النخل والرمان على الفاكهة من باب عطف الأشياء المختلفة بعضها على بعض أو من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى في : سورة البقرة : ( حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ) . والقائلون بالرأى الأول يقولون إن النخل والرمان عند العرب بمنزلة القمح ، لأن النخل عندهم قوتهم والرمان كالثمرات وكانوا يتقوتون به أيضاً لكثرة عندهم ، ولذلك أفردت عنهما الفواكه . أما القائلون بالرأى الثاني وهو أن النخل والرمان من الفواكه فيقولون إنهما خصصا بالذكر لفضلهما وحسن موقعهما من الفاكهة . وقيل بل عطفاً أو أفرداً لأن ثمر النخل وهو التمر فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء لاستخدامه في فساد المعدة ، وهما بذلك لا يخلصان

للتفكه ، ولهذا عُطفا على الفاكهة كأنهما نوعان مختلفان عنها ، ومن هنا ذهب أروحينيفة إلى أن من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو تمرّاً لم يحنث خلافاً لصاحبيه مالك والشافعي . وقال الفخر الرازي إن الله خصّ في الآية التمر والرمان بالذكر دون غيرهما من الفواكه لأنهما يمثلان نوعين متقابلين أحدهما حلو والآخر حامض ، وأحدهما حار أو من فواكه البلاد الحارة والآخر بارد أو من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره سامقة والآخر أدنى إلى القصر ، وأحدهما لا حجاب عليه والآخر محجوب بغلاف أو غطاء . فهما كالضدين مما يجعل ذكرهما يتناول الإشارة إلى كل ما بينهما من الفواكه . وقال الفخر أيضاً : إن هذه الآية نوّهت بالفواكه الشجرية ، أما الفواكه الأرضية مثل البطيخ فقد تضمنته الآية السابقة (مُدْهَامَتَانِ) وكأنها تشتمل أنواع الخضر وما يدخل فيها من الفواكه الأرضية التي لا تقوم على ساق . وقيل إن الشجر في الجنة لا يحمل جميع ألوان الثمار فقط . بل يحمل أيضاً الحليّ والحلّال . وقيل أيضاً إن من يشتهي ثمرة تتدلّى شجرتها إليه ، فيقطف منها أو يتناول ما يريد . وبمجرد أن ينزع ثمرة من مكانها تخلفها ثمرة للثوّ وقيل بل ثمرتان ، وإذا كان لها كمّ برزت منه ، وإذا كان لها نواة خلصت منها . وكما تحمل الأشجار الفواكه وتبيّثها للمتقين تهيّ لهم أيضاً الظلال الممتدة ، ظلّالا لا باردة ولا حارة بل معتدلة يحسون فيها الراحة على نحو ما يحس رجل الصحراء في ظلّال شجرة تظهر له فجأة عبر الرمال الشاحبة ولهبب الشمس اللافح ، بل إن راحة الجنان وظلالها أمتع وأعظم ، وهي ظلّال لا تقي من شمس ولا من حر ، فليس في الجنة حر ولا شمس كما مرّ بنا ، وإنما زيادة في

النعم والمتاع . وعنه عليه السلام أنه قال : « إن هواء الجنة سَجَسَجٌ لا حرٌّ ولا بردٌ » والسجسج الظل الممتد كالوقت بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وهو ظل يصحبه ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ولا شمس ولا أقمار . ظل ممدود وعيون متفجرة وأنهار جارية وفواكه كثيرة وحدائق وبساتين وأشجار من كل صنف ، لا تقاس إليها أشجار الدنيا وما تحمل من ثمار ، وأشجار فواكه ونخل ورمان تحار فيها الأنظار . وقد تعرض المفسرون لبعض أوصافها ونعمتها ، من ذلك قول ابن عباس عن نخل الفردوس : « جُدُوْعُهَا زمرّد أخضر ، وكَرَبُهَا (كرانيفها) ذهب أحمر ، وسَعَفُهَا كَسُوَّةٌ لأهل الجنة منها مقطعاتهم (ثيابهم) وحُلَلُهم ، وثمرها أمثال القليل (جمع قلة) والدلاء (جمع دلو) وهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس فيه عَجَمٌ (نوى) كلما نُزعت ثمرة عادت مكانها أخرى » . وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ : أصول نخل الجنة فضة ، وجدوعه فضة ، وسعفه حُلَلٌ ، وحمله الرطب . وقيل إنه لا توجد في الجنة شجرة إلا وساقها وغصونها من ذهب ، وقيل بل الأغصان تكون لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً ، وقيل يغشاها فراش من ذهب مسرّة ومتعة للناظرين . وذكر بعض المفسرين في وصف الرمان أنه حار رطب يلين الصدر والحلق ويجلو المعدة وينفع من الخفقان ، لتوضيح أنه طعام ودواء معاً . وهو تصوير ينطبق على رُمان الدنيا أما في الجنة فلا مرض ولا حاجة إلى دواء ، وكل ثمرة هناك فهي للتفكه . وأبعد بعض المفسرين فذهب إلى أن ذكر الرمان ، الذي يتخذ للدواء كما يتخذ للطعام ، مع أصحاب اليمين وجنتيهما يدل على ضعف استعدادهما بالقياس إلى المقربين أصحاب الجنتين الأولين ، إذ الدواء إنما يهياً ويُعدّ لضعيف المزاج ،

وقد قلنا آنفا إن الرِّمَّانَ في الجنة لا يكون دواءً وإنما يكون فاكهة خالصة .  
 وذكر الله في سورة النبأ من فواكه الجنة الأعناب . وجميعها تجسم جوانب  
 من نعم الجنان وما ينبغي على الثقلين إزائه من مضاعفة الثناء والشكران  
 لوليِّ الإنعام والإحسان .

( فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

( فِيهِنَّ ) أى في الجنة المذكورتين وما أعدَّ الله لأهل اليمين من النعم  
 نساءً ( خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ) . قرئت ( خَيْرَاتٌ ) بسكون الياء للتخفيف ، وقرئت  
 بتشديدها ، والتشديد هو الأصل ، يقال امرأة خَيْرَةٌ وَخَيْرَةٌ كقوله عليه السلام :  
 « هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ » بتسكين الياء تخفيفاً ، والأصل هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ . وقيل المراد  
 خَيْرَاتُ الأخلاق فاضلات . ووصف بعض المفسرين الخيرات فقال : لَسَنَّ  
 بِدَمْرَاتٍ وَلَا مَطْلَعَاتٍ وَلَا مَتَشَوِّفَاتٍ وَلَا ذَرِبَاتٍ وَلَا سَلِيْطَاتٍ وَلَا طَمَّاحَاتٍ  
 وَلَا طَوَّافَاتٍ فِي الطَّرْقِ . وكأنه يصف الخيرات في دنيانا ، والدمرات من الدَّمَرِ  
 وهو الرائحة المستكرهة من عرق أو غيره . وَالمَطْلَعَاتُ من التطلع إلى غير  
 أزواجهن . وَالمَتَشَوِّفَاتُ المتزينات أى أن جمالهن متصنَّع لا طبيعي .  
 وَالذَّرِبَاتُ الشرارات . وَالسَلِيْطَاتُ طويلات اللسان . وَالطَّمَّاحَاتُ الشَّرْسَاتُ  
 الناشزات اللائى لا يرضين دائماً عن الزوج . وَالطَوَّافَاتُ في الطرق الدوارات  
 اللائى لا يمكنن في البيت ولا ينتظرن فيه أزواجهن . وكل ذلك إنما يمكن  
 أن يقال في نساء الدنيا . وقيل معنى ( خَيْرَاتٌ ) مختارات اختارهن الله وأبدع  
 خلقهن أو تكوينهن وأخلاقهن أو شمائلهن . والأولى أن تفسر الكلمة بحسن  
 الأخلاق لمجيء كلمة ( حَسَنَاتٌ ) بعدها ، فهن فاضلات حسناوات ، وهما نعمتان  
 إلهيَّان لهن يرفعانهنَّ إلى الذروة العليا . وفي بعض كتب التفسير : « لو أن خَيْرَةً من

(خَيْرَاتِ حِسَان) اطلعت من الجنان لأضواء لها الأرض والسماء ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر . ولعصابتها على رأسها خير من الدنيا وما فيها « وقيل أيضاً : « يأخذ بعضهم بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا يمثلها قائلات نحن الناعمات فلا نبؤس ، الراضيات فلا نسخط الخالديات فلا نموت . نحن (خَيْرَاتِ حِسَان) حبيبات لأزواج كرام » . وقيل هن نساء الدنيا . وقيل بل الحور العين وأهن إذا تغنين هذا الغناء أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصليات وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائمات وما صُئِمْتُنَّ . ونحن المتوضئات . وما تَوَضَّأْتُنَّ . ونحن المتصدقات وما تصدقتن . فيغلبنهن بتصدقهن وصيامهن وصلاتهن وعبادتهن ! وَيُرْوَى أن الله يلبس وجوه النساء النور . وينشئن نشأة جميلة جديدة كما قال في سورة الواقعة : (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْبَيْمِينِ) فهن يَعُدْنَ خلقاً جديداً ، يَعُدْنَ شابات (أَبْكَارًا عُرْبًا) أو بعبارة أخرى متعشقات لأزواجهن متحبيبات (أَتْرَابًا) أو بعبارة أخرى مماثلات لهم في السن والشباب . فلا طفولة في الجنة ولا هرم ، وإن العجوز العمشاء (ضعيفة البصر) الشمطاء (المشتعل رأسها شيباً) التي بلغت من الكبر عتياً لتعود شابة حسناء كما تعود الطفلة والصبية . وَيُرْوَى أن عجوزاً من بنى عامر كانت عند السيدة عائشة رضيت الله عنها . فتعرضت للرسول صلى الله عليه وسلم قائلة : « يا رسول الله ادعُ الله أن يدخلني الجنة ، فقال لها : يا أمّ فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولّت وهي تبكي . فقال عليه السلام : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز . إن الله يقول . وتلا الآية السالفة . فسرى عنها . ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم

سُئِلَ عن المرأة تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ثم تُبَعَثُ وتدخل الجنة ويدخلون معها ، مَنْ يكون زوجها ؟ فقال إنها تَخَيَّرُ بينهم فتختار أحسنهم (كان) أخلاقاً . وإذا كان المؤمنون قد وُعدوا بثياب الحرير والسندس والإستبرق وبأن يتزينوا ويتحلَّوا بأساور الفضة والذهب واللؤلؤ فطبيعي أن يكون للمؤمنات من ذلك حظ . لا يقل عنهم إن لم يفقنهم فيه . أما نعيم الطعام والشراب فهم فيه سواء . ومعروف أن الإناث في العربية يندرج خطابهن في خطاب الرجال فلا يفرقن عادة بالحديث ، ومع ذلك ذكر القرآن مراراً أنهم يشركون أزواجهن في النعيم كقوله جَلَّ شأنه في سورة الزخرف : ( اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ) أى تُسَرَّونَ بما فيها من متاع ، وقوله في سورة الرعد : ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ) . وهى نعم وآلاء تعم الثقلين ذكوراً وإناثاً ، ولن يستطيعوا ، مهما صنعوا ، أن يؤدوا لربهم ما يستحقه إزاءها من شكر وثناء .

( حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

الحُور جمع حَوْرَاء ، واختلف المفسرون في تفسيرها على وجه ، فقيل الحَوْرَاء البيضاء بَضَّة البشرة صافية اللون التى يرى الناظر إليها وجهه فى صفحة وجهها كأنها مرآة لشدة صفائها . وقيل الحَوْرَاء التى يتلأأُ وجهها بياضاً . وقيل الحوراء هى التى يبلغ من جمالها أن يُرى ساقها من تحت سبعين حلة . وقيل سميت حَوْرَاء لأن الطَّرْفَ يحار فى حسنها وبياضها وصفاء لونها . وقيل : بل الحوراء هى التى تمتاز فى بصرها بالحور وهو نقاء

بِإِضِ العَيْنِ فِي شِدَّةِ سَوَادِ الحَدَقَةِ . وَوُصِفَتِ الحَوْرُ فِي بَعْضِ الآيَاتِ بِأَنَّهِنَّ  
(عَيْنٌ) جَمْعُ عَيْنَاءٍ وَهِيَ الوَاسِعَةُ العَيْنِينَ . وَمَعْنَى (مَقْصُورَاتٌ) مَحْبُوسَاتٌ أَوْ  
مَكْتَنَّنَاتٌ أَوْ مَسْتَوْرَاتٌ فِي الخِيَامِ سَتْرَ صِيَانَةٍ وَتَكْرَمَةٍ . وَقِيلَ : بَلْ مَعْنَى الكَلِمَةِ  
مَقْصُورَاتٌ قُلُوبُهُنَّ وَأَبْصَارُهُنَّ وَنَفُوسُهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ . وَالأَوَّلُ أَظْهَرَ وَأَقْرَبُ .  
وَقِيلَتْ آرَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ ( فِي الخِيَامِ ) فَقِيلَ إِنَّهَا بِيُوتٌ مِنْ لَوْلُؤٌ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ أَوْ كُلِّ خِيْمَةٍ فَرَسَخٌ فِي فَرَسَخٍ وَلَهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ مِصْرَاعٍ مِنْ  
ذَهَبٍ . وَقِيلَ بَلْ لَهَا سَبْعُونَ بَاباً مِنْ دُرٍّ . وَعَنْ بَعْضِ المَفْسِرِينَ أَنَّ سَحَابَةَ  
أَمْطَرَتْ مِنَ العَرْشِ فَخُلِقَتْ الحَوْرُ مِنْ قَطْرَاتِ الرَّحْمَةِ ، ثُمَّ ضُرِبَ عَلَى كُلِّ  
وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ خِيْمَةٌ عَلَى شَوَاطِئِ الأَنْهَارِ سَعَتَهَا أَرْبَعُونَ مِيلاً وَليْسَ لَهَا بَابٌ ،  
حَتَّى إِذَا دَخَلَ المُؤْمِنُ الجَنَّةَ انْصَدَعَتِ الخِيْمَةُ عَنْ بَابٍ لِيَعْلَمَ أَنَّ أَبْصَارَ المَخْلُوقِينَ  
مِنَ المَلَائِكَةِ وَغَيْرِهَا لَمْ تَأْخُذْهَا ، فَهِيَ مَقْصُورَةٌ قَدْ قُصِرَ بِهَا عَنْ أَبْصَارِ المَخْلُوقِينَ .  
وَلَعَلَّ هَذَا كُلَّهُ تَفْسِيرٌ وَتَعْلِيقٌ لِمَا أَثَرَّ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ حِينَ سُئِلَ عَنْ  
الخِيَامِ فِي هَذِهِ الآيَةِ ، قَالَ : الخِيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ . وَرَوَى بَعْضُ المَفْسِرِينَ أَنَّ الحَوْرَ  
العَيْنِ خُلِقْنَ مِنَ الزَّعْفَرَانِ وَأَنَّ المُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لِيَمْسُكَ التَّفَاحَةَ مِنْ تَفَاحِهَا ،  
فَتَنْفَلِقُ فِي يَدِهِ ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا حَوْرَاءٌ لَوْ نَظَرْتَ لِلشَّمْسِ لِأَخْجَلَتْ الشَّمْسُ مِنْ  
حَسْنِهَا مِنْ غَيْرِ أَنَّ يَنْقُصُ مِنَ التَّفَاحَةِ شَيْءٌ ! وَرَوَى القُرْطُبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ  
قَالَ : خَلَقَ اللهُ الحَوْرَ العَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ القَدَمِينَ إِلَى الرِّكْبَةِ مِنَ الزَّعْفَرَانِ وَمِنْ  
الرِّكْبَةِ إِلَى الصَّدْرِ مِنَ المَسْكِ الأَذْفَرِ ( الفَائِحِ ) وَمِنْ الصَّدْرِ إِلَى العُنُقِ مِنَ العَنْبَرِ  
الأَشْهَبِ ( الأَبْيَضِ الضَّارِبِ إِلَى الأَسْوَدِ ) وَمِنْ العُنُقِ إِلَى الرَّأْسِ مِنَ الكَافُورِ  
الأَبْيَضِ ، عَلَيْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ حُلَّةٍ مِثْلَ شِقَائِقِ النِّعْمَانِ ( نَوْعٌ مِنَ الوَرْدِ )  
إِذَا أَقْبَلَتْ يَتَلَأَلُ وَجْهَهَا نُورًا سَاطِعًا كَمَا تَتَلَأَلُ الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، وَإِذَا

أدبرت يُرَى كَبِدُهَا من رقة ثيابها وبَشَرَتِهَا ، في رأسها سبعون ألف ذُوَابَةٍ من المسك الأذفر ، لكل ذُوَابَةٍ منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادى : هذا ثوابُ العاملين . وواضح أن الحور العين يَسْتَجِلْنَ في مثل هذه الصورة إلى تماثيل لا روح فيها ولا حياة ، وما نظن أن نسبتها لابن عباس صحيحة . ويقول بعض المفسرين إنه بلغهم في الرواية أن لكل مؤمن سبعين من الحور واثنين من ولد آدم ، ويجعل نفر منهم الحور اثنتين وسبعين ، ويقولون إن المؤمن إذا دخل الجنة مضى إلى الأولى منهما في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجاً من سندس وإستبرق . وإنه ليبلغ من صفاء بشرتها أن يُرَى مخ ساقها من وراء سبعين حلة تلبسها كما يرى الشراب في الزجاج . وتتكاثر أعداد هؤلاء الحور عند بعض المفسرين حتى لينقل عنهم الشيخ إسماعيل حتى في تفسيره المسمى بروح البيان أن الشخص من أهل الجنة يتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف ثَيِّبٍ وثمانية آلاف بكر يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا ! ويتعرض بعض المفسرين لعدد من يلقاهم المؤمن من هؤلاء الحور في اليوم الواحد أو في الغداة ، فمنهم من يجعلهن سبعين ومنهم من يجعلهن مائة ! وكان ينبغي أن يحتاط أسلافنا فيما يروون من ذلك ، لأن صلة الرجل بالمرأة في الآخرة لا نعلم حقيقتها ولا يصح أن نتمثلها في صورة الصلة الدنيوية وما يتصل بالفريزة النوعية إذ لا ولادة هناك ولا حاجة لولد أو أولاد . على أن هناك أحاديث صحيحة تعارض الأعداد السابقة من الحور والأزواج الكثيرات ، فقد روى ابن كثير في تفسيره للآية الثالثة والسبعين من سورة الزمر حديثاً عن ابن حنبل ، وقال رواه البخارى ومسلم ، وهو بالنص : « قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم أول زمرة تلج (تدخل) الجنة ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوَّطون فيها ، آنتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومعامرهم (مراقد البخور) الألوَّة (العود يتبخَّر به) ورشُّهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبِّحون الله تعالى بكرة وعشيًّا». والزوجات في هذا الحديث لا يتجاوزن اثنتين . ورَوَى ابن كثير في تفسيره لسورة الغاشية عن الصحابي الجليل أسامة بن زيد أنه قال في بعض حديثه عن الرسول الكريم : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل من مشمَّر للجنة ؟ هي ورب الكعبة نورٌ ينلُّ . وريحانةٌ تهتزُّ . وقصْرٌ مُميد ، ونهر مطرَّد ، وثمرَةٌ نَضيجةٌ ، وزوجةٌ حسناء جميلةٌ ، وحُلٌّ كثيرةٌ ، ومقامٌ في أبدٍ في دار سليمة ، وفاكهةٌ وخُضرةٌ ، وحَبْرةٌ (مَسْرَّة) ونعمةٌ ، في مَحَلَّة (منزل) أو بناية (عالية بهيَّة) . قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمَّرون لها قال : قولوا إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله . وواضح أن الحديثين ينقضان ما تبارى فيه بعض المفسرين من إحصائيات الحور العين . فضلا عن إحصائيات الصلة اليومية بينهن وبين أزواجهن . وبحقِّ لاحظ بعض المفسرين أن الله جلَّ شأنه عبَّر عن الصلة الجديدة بين الأزواج وزوجاتهم في الحياة الآخرة بقوله في سورتي الدخان والطور : (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) ولم يقل : وزوجناهم حورًا ، مع أن الفعل يتعدَّى إلى مفعولين كما جاء في سورة الأحزاب : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) . وذكر القرطبي في تفسير سورة الطور أن يونس بن حبيب العالم اللغوي المشهور في القرن الثاني الهجري قال : « تقول العرب زوَّجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة ، وقول الله عزَّ وجلَّ :

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) أى قرناهم بهن « وقال الراغب الأصفهاني : « لم يجئ في القرآن زوجناهم حوراً كما يقال زوجته امرأة تنبهاً على أن ذلك ليس على حسب المتعارف فيما بيننا من الزواج » . وبذلك تسقط. كل الصور الخيالية التي أنشأتها في مخيلات بعض الأسلاف كلمة (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) فالزواج في الآية ليس على أصل معناه في الدنيا إنما هو اقتران والتقاء يتناسب مع النشأة الثانية . ويبدو أن كلمة الحور العين التي لا يعدو ذكرها عدد أصابع اليد الواحدة في الذكر الحكيم هي التي فسحت للخيال عند بعض السابقين . ويقول القرطبي في التعليق على الآية السالفة : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) : « وقد قيل إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقْنَ فِي الآخِرَةِ عَلَى أَحْسَنِ صُورَةٍ قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ » وذكر الألويسي في تفسير الآية الكريمة : ( فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ ) أن الشعبي كان يرى أنهن من نساء الدنيا . ولا شك أن كل متاع أخروي فوق كل متاع دنيوي . ولكنه متاع مخالف في النوع والجنس ، متاع يلائم الحياة الآخرة ، لا ما بين الزوجة وزوجها فحسب ، بل كل متاع مما صوره القرآن الكريم في الثياب والحلى والطعام والشراب ، مما جعل ابن عباس يقول - كما ذكر ذلك القرطبي في تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة - : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء . وفي رواية أخرى عن ابن كثير في تعليقه على آية الرحمن السابقة : (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَأَكِيهَةٍ زَوْجَانِ) : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء ، وكأنها أسماء لتجسيد المتاع الأخروي الذي يفوق كل متاع دنيوي مشابه ، وهي أسماء لا تنق بتصويره ، فوراء ما تصوره متاع عظيم كما قال جل ذكره في سورة

السجدة متحدثاً عن نعيم المتقين : ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ  
 أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) فلا أحد يعلم بل لا تعلم أى نفس من نفوس  
 البشر ما أدخر الله لعباده من المتاع الذى تقرُّ به عيونهم وتُسَرُّ به نفوسهم .  
 وفى الحديث عن الرسول عليه السلام : « يقول الله تعالى أعددت لعبادى  
 الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . وهو  
 بذلك متاع فوق كل ما يتخيله الإنسان ، وحسبنا أن نعلم ذلك ولأنحاول  
 تمثله بصور دنيوية تحكيه ولا بصور غالية مغرقة في الغلو كأن نتصور الحور  
 العين لا عشرات بل مئات بل آلافاً ، أو نتصور ما قيل من أن الخيمة من  
 خيام المقصورات المذكورات في الآية التى نحن بصددنا قُبَّة من لؤلؤ وزبرجد  
 وياقوت منصوبة في رقعة واسعة سعة ما بين الجابية في شرق الأردن وصنعاء  
 في اليمن . أو نتصور أن السرير من أسرة الجنة من ذهب خالص مكلل  
 بالزبرجد والدر والياقوت ويشغل رقعة فسيحة كالرقعة الممتدة بين مكة  
 والعقبة . أو أن نتصور أن عنقود النخل في الجنة اثنا عشر ذراعاً وأن  
 طيرها في حجم الإبل الضخمة . فكل ذلك وما يشبهه من الصور الخيالية عند  
 المفسرين لا يبلغ شيئاً من تصوير متاع الجنة الذى أشارت إليه آية سورة  
 السجدة وأشار إليه الحديث الشريف ، مما يوجب على الثقيلين مراصلة  
 الحمد والثناء على رب العالمين .

( لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكذِّبَانِ ) :

تكرار لبيان أن نساء الجنتين الأخريين يتصفن بصفات نساء الجنتين

الأوليين (قاصراتُ الطرفِ) وأنه لم يمس الإنسيات منهن أحدٌ من الإنس ولا مسَّ الجنيات أحدٌ من الجن . وليس معنى ذلك أن أزواجهن يتمتعون بهن على نحو ما تمتعوا بهن في الدنيا من حين كن عذارى إلى أن فرق الموت بينهما ، فالمتاع ، كما قلنا آنفاً ، مختلف ، وحقيقته مما يخفى على الثقلين . ولا ريب في أنه لا يماثل المتاع الدنيوي ، كما لا ريب في أنه يفوقه في النوع والدرجة . ومن الغريب أن بعض المفسرين حاولوا أن يستنبطوا من هذه الآية الكريمة أن الجن يمكن أن يعاشروا الإنسيات وأن الإنس يمكن أن يعاشروا الجنيات ، وقالوا إن العقل لا يُحيل ذلك وإن الله حين طرد إبليس من رحمته قال له أمهلني إلى يوم البعث فأمهله ، غير أن إبليس ولى يتوعد آدم وأبناءه من البشر بإغوائهم بمختلف الطرق ، ونهره الله جلَّ شأنه هو ومن تبعه منهم كما جاء في سورة الإسراء قائلاً له : ( اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا .. وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ) ، وزعموا أن المشاركة في الأولاد التي حكاها الله تعنى تلك المعاشرة . والآية إنما تعنى الإغواء والإضلال بالأموال والأولاد ولا تحمل دلالة صريحة على ما زعموه . واستدلوا ببعض الأساطير وما جاء فيها من أن أم بلقيس ملكة سبأ كانت جنيَّة ، وهي مجرد أسطورة أو قل حديث خرافة لا يثبت شيئاً . ومثله كثير في الخرافات العتيقة عند جميع الشعوب سقط . إليها من عصور تأليه الأسلاف للملوك وما كان يقال حينئذ من أنهم أبناء آلهة أو من نسلهم . ولعل من العجب العجاب أن يضاف إلى ابن عباس أنه قال إن الخنثى المشكل من ولد الجان ، إذ يسبق الشيطان الرجل إلى زوجته حين لا يعتزلها في المحيض ، فتحمل منه ، فتجيء بولدها المخنث ، وهو محض

خيال . ويقال إن قوماً من أهل اليمن كتبوا إلى الإمام مالك يسألونه عن معاشره الإنسيات لبعض الجن ، فأوضح لهم خطورة الأخذ بهذه الفكرة وأنها تجرّ إلى فساد خطير في الأمة ، إذ قد تزعم من حملت عن طريق غير شرعي بأنها حملت من الجن . وهذا جميعه تصور خاطئ فإنه لا يمكن أن تحدث معاشره بين جنى وإنسية أو بين إنسى وجنية لا اختلاف الطبيعتين وتباين الجنسيتين ، فقد خلق الله الإنسان كما جاء في هذه السورة ( مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ) وتمتنع المعاشره ويمتنع التناسل مع هذا التباين الشديد . والله عزَّ سلطانه يمتنُّ على الثقلين ذكوراً وإناثاً ، بنعمه وآلائه في خلق النساء في الآخرة على أجمل صورة ، صورة الشابات العذاري الجميلات . وهي صورة ينبغى أن يتلقاها الإناث والذكور جميعاً بالشكران لله والإخلاص في الطاعة .

( مُتَكِبِّينَ عَلَى رُفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٌّ حَسَانٍ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) :

الرُّفْرَفُ : الفرش المرتفعة ، وقيل ما تدلّى من الأسرة من نفيس الفرش ، وقيل المفارش . وقيل البسط ، وقيل حواشي الفرش والبُسط . وقيل كل ثوب عريض ، وقيل الرقيق من الديباج ، وقيل أطراف الخباء الواقعة على الأرض وما تدلّى من جوانب الدَّرْع . وفي الخبر عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : فرُفِعَ الرُّفْرَفُ فَرَأَيْنَا وَجْهَهُ كَأَنَّهُ رِيقَةٌ . وقيل الرُّفْرَفُ ضرب من الفرش يشبه بالرياض ، ويقال إن بساط كسرى أنو شروان حاكم إيران قبيل الإسلام كان ستين ذراعاً في ستين ذراعاً يُبْسَطُ . له في إيوانه منظوماً

باللؤلؤ والجواهر الملونة بألوان زهر الربيع . وليس بمستبعد على الله أن تكون أبسطة الجنة ورفارفها أعظم وأروع . وقيل الرفرف ضرب من الوسائد . وقيل الرفرف من رَفَّ النَّبْتُ يَرِفُّ إذا صار غَضًّا نَضِيرًا ، وهو لذلك رياض الجنة . وقيل بل الرفرف من رَفَّ يَرِفُّ إذا ارتفع ، ومنه رفرقة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء وتحويمه حول الشيء يريد أن يقع عليه ، وكأنه بذلك يساط أو شيء إذا استوى عليه صاحبه رَفَّرَفَ به وارتفع أو أهْوَى كالمراجيح يمينا وشمالاً ورفِعاً وخَفَضاً . وكأنه بساط طائر كبساط النبي سليمان يتنزّه فيه المؤمنون والمؤمنات . وفي حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى سَيِّدِ الْعَرْشِ ، وذكر أنه قال : « طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربى » . ولما حان انصراف الرسول تناوله فطار به خَفَضاً ورفِعاً يهوى به حتى انتهى إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه . والرفرف في هذا الحديث مسخَّر بين يدي الله تعالى مختص بخواص الأمور في محل الدنو والقرب . وكأنه يسخَّر في الجنة ليكون متكثراً وفُرُشاً لأهل اليمين وقيل ليرفرف بهم على حافات أنهار الجنة وبين رياضها حيث شاءوا ومعهم زوجاتهم ، أو كما قال بعض المفسرين ليزهبوا إليهن ويعودوا من عندهن . والرَّفْرَفُ إما اسم جنس جمعى وإما اسم جمع واحده رفرقة . وعلى كلا الاحتمالين يصح وصفه بقوله تعالى (خُضْرٍ) والخضرة من الألوان التي تجذب الأنظار إليها والتي يميل إليها الإنسان بطبعه لانتشارها تحت بصره في الطبيعة . (وَعَبْقَرِيٌّ) مثل رفرق إما اسم جنس جمعى وإما اسم جمع واحده عبقرية ولذلك وُصِفَ بقوله عز شأنه (جِسَانٍ) أى بالجمع لا بالمفرد . وعبقر موضع

تزعم العرب أنه من أرض الجن ، ويُنسبُ إليه كلُّ فائق جليل من الإنسان ، وكلُّ شئٍ بَلَغَ الغاية في جودة صنعته ، وكل غريب مما يَعْمُر عمله ، وكل نادر من فُرُش أو ثياب . وعلى نحو ما اختلف المفسرون في معنى الرفرف اختلفوا في معنى العبقرى ، فقيل ثياب منقوشة تُبَسَطُ ، وقيل الطَّنَافُسُ الثُّخَانُ وهى الأبسطه ذات الأهداب الرقيقة ، وقيل الديباج الغليظ . وقيل الثياب الموشاة وأنها تُنسبُ إلى أرض يُصنَعُ بها الوشى ، وقيل الديباج الموشى ، وقيل البُسط ذات الصور ، وقيل البُسط ذات الوشى ، وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم « كان يسجد على عَبْقَرِيَّ » أى بُسَط تكون فيها الأصباغ والنقوش . وقد جعل الله العبقرى الحسان مثلاً لفرش أهل الجنة مخاطباً العرب بما تعارفوه حتى يتمثلوا نعم الجنة فى تلك الفرش وكل ما يتصل بها من مجالس وأكسية حريرية ووسائد وأبسطه منقوشة وطنافس تفوق كل خيال . وواضح أن السورة جَسَمَت نعم الجنة المادية بكل ما يتصل بها من رياض وظلال وعيون ومياه جارية تسر العين والنفس ، ومطاعم وفواكه تُمتع وتلذذ طاعمها ، وفرش ديباج ووشى تبهج الناظرين ، وحوار عين فى أروع ما يَكُنُّ من جمال وزينة . وكل ذلك إنما هو تصوير لنعم الجنة بما نشاهده ونبصره فى دنيانا وهو فوق ذلك درجات ، إنه نعم الجنة الذى لا يلحقه ولا يشبهه ولا يدنو منه أى نعم فى تلك الدنيا الفانية ، وإنه لخليق بكل أفراد الثقيلين من الإنس والجن أن يتنافسوا فيه ويتسابقوا ، بعبادة الله حق عبادته وشكره على آلائه ونعمه التى لا يستطيع أن ينهض بحقها أى شكر أو ثناء .

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

(تبارك) اختلف المفسرون في معناه . فقليل معناه تقدّس ، وقليل تعالى ، وقليل تعالى عطاؤه وزاد وكثر . وقليل تبارك تفاعل من البركة وهي الكثرة من الخير أى كثر خيره وفضله . وقليل تبارك من برك الشيء إذا ثبت ، فمعناه ثبوت الخير والإنعام الإلهي ودوامهما . قال الطرّمّاح :

تباركتَ لا مُعْطٍ لشيءٍ منعتَه وليس لما أعطيتَ ياربُّ مانعٌ

و (اسْمُ رَبِّكَ) في الآية هو الاسم الذي اُفتتح الله به السورة الكريمة فقال : (الرَّحْمَنُ) ومرّاً بنا تفسير (ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) في قوله جَلٌّ شأنه : (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) . وقد قلنا هناك إن (الجلال) يفيد العظمة والهيبة ، والإكرام يفيد الإنعام والالطف ، فهو ذو الجلال الخليق بالمهابة والعبادة والطاعة . وهو رب الإكرام الخليق بالحمد والشكر والثناء . وقد جعل الآية الأولى : (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) خاتمة لنعم الدنيا القانية وأنها جميعاً إلى زوال ، والبقاء لله وحده ذي الجلال صانع الكون ومنشئه نشأته الأولى . وإنه لمنشؤه النشأة الثانية ومفيضٌ عليه من إكرامه وإحسانه . أما الآية الأخيرة : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فقد جعلها خاتمة لنعمه وآلائه الوافرة في الآخرة . وأنه حرى أن يتجه إليه الثقلان ذكوراً وإنائاً ويقدّسوا اسمه (الرحمن) ويستغرقوا في نور جلاله ونخضمّ جوده . وعلى نحو ما بدأت السورة بذكر (الرحمن) خُتمت به تكراراً كريماً لبيان رحمة الله ورأفته وإنعامه وإحسانه وأُنسه وبرّه بالثقلين برّاً متصلاً في الحياتين الأولى والآخرة . وإن برّاً

الآخرة وما أُعِدَّ فيها للمتقين ل فوق كلِّ برٍّ يمكن للإنسان أن يتصوره .  
وقد ذكرت السورة كثيراً من وجوه البرِّ والآلاء المادية في الحياة الآخرة ،  
وتتردد بجانبها في مواطن كثيرة من الذكر الحكيم وجوه برِّ وآلاء نفسية  
وروحية رفيعة ، وهي تبدأ منذ البعث ومسيرة المؤمنين في ساحات القيامة  
إذ يمتد نورٌ من حول كل منهم يعمُّ جميع جهاته ، كما قال تعالى في سورة  
الحديد : ( يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ  
وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ) ،  
فلهم نور يضيء حولهم متقدماً لهم وعن أيامهم يهتدون به طوال سيرهم على  
الصراط وإلى الجنة ، وقبل ذلك عند الحساب وتلقَّى كل مؤمن ومؤمنة  
الكتاب . حتى إذا دخلوا الجنة أصبحوا ( في عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ) عيشة كلها  
خلود وصحة وخلو من جميع المنغصات والشوائب ، لا حزن فيها على فقيد  
ولا على مريض ولا من بؤس وشقاء ، بل فرح دائم ومسرة كما جاء في  
سورة الزخرف : ( يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ  
آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ ) أى  
تُسَرَّونَ بجميع أنواع السرور . وجعل منها بعض المفسرين الغناء وأن  
الحوار يتغنين في الجنة بأصوات لم يُسمع مثلها قط . وهو سرور أعم  
من الغناء ، سرور لا حدود له ، كما قال تعالى ذكره : ( وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ  
وَسُرُورًا ) سُورًا في قلوبهم ونضرة وجمالاً وبهاء في وجوههم ؛ وإنهم ليرددون  
كما جاء في سورة فاطر : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا  
لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا  
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ) إنها تخلو من كل ما يسبب الحزن والغم فليس فيها

مصائب ولا كوارث وليس فيها ما يسبب نَصَباً أو تعباً ولا لغوياً أو إعياء ،  
أو بعبارة أخرى ليس فيها ما يسبب عناء وشقاء ولا ما يسبب لوعة وحسرة .  
وكذلك ليس فيها ما يؤذى النفوس المخلصة الصادقة من ساقط الكلام  
والكذب الصراح كما جاء في سورة النبأ : ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا  
كِذَابًا ) أو قل لا يصل إلى آذانهم أى كلام قبيح من فحش أو شتم أو  
مما يجرُّ إلى إثم كما جاء في سورة الواقعة : ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا  
تَأْتِيًا ) ، فبعضهم لا يؤثَّم بعضاً ، إنها تخلو من كل إثم ومن كل باطل  
ومن كل فحش ومن كل كذب ومن كل لغو ومن كل ضغينة وحقد كما جاء  
في سورة الحجِّر في صفة أهل الجنة : ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ  
إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ) فلا غِلٌّ ولا اضطغان ولا تحاسد ولا تباغض ،  
بل أخوة وصداقة وودعة مخلصة نقية تجردت من كل رياء ومن كل خداع  
ومن كل غاية وغرض . إنهم إخوان الصفاء ، تصافت قلوبهم وتوادت  
وتحابَّت وتآخَّت تأخياً مستحكماً وثيقاً إلى أبد الأبدين ، في تلك  
الدار الهيئته التي سماها الله : ( دار السلام ) أو بعبارة أخرى دار الأمن  
والطمأنينة ، فقد انتهت الدنيا بكل ما كان فيها من رجاء وخوف وكل ما  
كان فيها من جزع وفزع وولع ، وأصبح المؤمنون والمؤمنات في دار السلام دار  
الراحة والدعة والسكينة ، دار الأخيار والخير الصفو الذي لا يكدره أى  
شئ ، دار كلها بشر وسرور وأمن وابتهاج لا يسمع أهلها فيها ، كما  
جاء في سورة الواقعة ( إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ) تحية يتبادلونها معبرة عن شعورهم  
بالأمن والرضا وطمأنينة القلب ، ويتبادلها معهم الملائكة كما قال تعالى  
في سورة الرعد : ( وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ  
سورة الرحمن

يَمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ). ويتجلى لهم ربهم تفضلاً وإنعاماً إلهياً ،  
 فينثر عليهم أزهار هذا السلام الخالد كما جاء في سورة يس : (سَلَامٌ قَوْلًا  
 مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) . وشرح ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « بينا أهل  
 الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ ، فرجعوا رءوسهم ، فإذا الربُّ تعالى قد  
 اطلع عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله :  
 (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) فينظر إليهم وينظرون إليه ، ولا يلتفتون إلى  
 شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره وبركاته  
 عليهم » . وهذا اللقاء للذات العلية في الآخرة أشارت إليه غير آية في القرآن  
 كقوله تعالى في سورة الانشقاق : (يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ  
 كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) . وبهذا اللقاء وما يتضمن من رؤية الله فسرت الزيادة في  
 آية يونس : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) . ولا ريب في أن هذه  
 الرؤية تعبر عن أحوال من السعادة لا يمكن تصورها في الدنيا ، وبالمثل  
 تجليات الذات العلية حينئذ في نورها الذي لا يقوم له ولا يثبت بصر .  
 ومن هنا قال بعض المتأولين إنها رؤية بالفؤاد والعقل لا بالنظر ، وأولى أن  
 نقول إنها تجليات ومشاهدات لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا علام الغيوب .  
 وهي تنويج الحب المتبادل في الدنيا بين العبد والرب الذي تردد ذكره  
 طويلاً في القرآن والحديث ، ولعلها نفس الرضوان الذي وعد الله به المؤمنين  
 والمؤمنات في آية التوبة : (وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ  
 اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وأى فوز أعظم من تجليات الله لعباده  
 في الآخرة واستغراقهم في نوره وأنسهم بشهوده وبهائه . وتلك الآلاء الروحية  
 تُشْفَعُ في الذكر الحكيم بالآء سورة الرحمن المادية المتصلة بالثواب في

الآخرة ، بل إن وراء الطرفين من الآلاء ما وعد الله به عبياده من نعيم مادي وروحي لم يسألوه ولم تبلغه أمانيتهم كما قال في سورة قآ : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) أى من ضروب النعيم مما لم يخطر لأهل الجنة على بال ولا حلموا به في يوم من الأيام . وإن من فاته أن يُعَدَّ نفسه إعداداً حسناً لهذا النعيم الخالد الذى لا يحيط به وصف لينبغى أن يحثو على رأسه التراب بيديه حسرةً وندماً على ما فرط في جنب الله . تباركت يا ذا الجلال والإكرام .